مفاهيم إسلامية

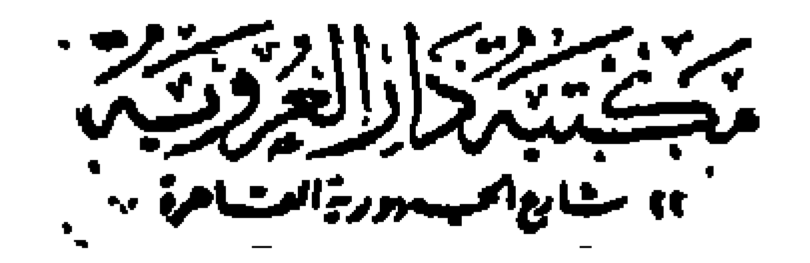
الغزو الفكري

محمد جلال كشك

مفاهيم إسلامية

الغزو الفكري

محمد جلال كشك

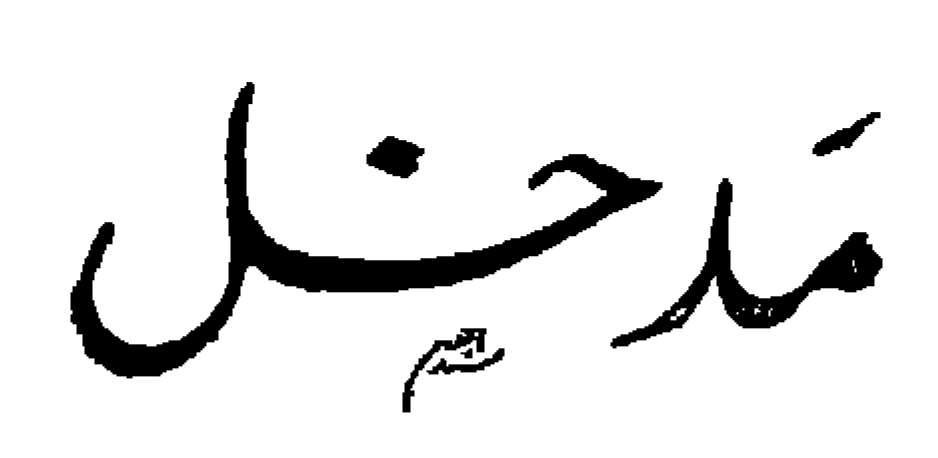


مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية ـ القاهرة

إلى عينيها ..

إن موقفنا إزاء الإسلام يختلف ، لأننا ثوريون مرتبطون بالشعب . ذلك أن رفض الايديولوجية الإسلامية فى بلاد مستعمرة ، يضطهد دين أكثرية سكانها الساحقة ، علامة تحضر مزيف تنادى بها فئة منفصلة عن الشعب ، غريبة الحياة والفكر امتصتها أو شلتها أيدلوجية العدو المستعمر .

عمار أوزيجان
الثائر الجزائرى



فكرت فى تأليف هذا الكتاب مع انتصار الثورة الجزائرية ، واتضاح طابعها الإسلامى . . والخطأ الذى وقع فيه بعض المفسرين من المشرق العربى فى محاولة لستر افتضاح مفاهيمهم . . هذه المفاهيم التى عاشت خلال نصف قرن تبشر بأنه لاثورية إلا بنفى الإسلام ، ومحاربة الإسلام .. ثم فاجأتهم أعظم ثورات العصر بروحها الإسلامية الكاملة . . فراحوا يعتذرون لثورة الجزائر ! مقسمين بأغلظ الأيمان ، أنها ظاهرة جزائرية سببها رعونة الفرنسيين . . وأنها لاتصلح للنقل ولا للتطبيق . . ولاداعى للمغالاة فى أهمية هذا الحدث الذى يرجى زواله بإذن الله . . !

وهكذا أثبتوا أنهم ليسوا فقط عاجزين عن الاكتشاف ، بل وعاجزين حتى عن التعلم . .

وقبل أن أكتب السطور الأخيرة فى هذه الدراسة ، كانت الأزمة مع حزب البعث — الذى لم نؤمن به يوما من الأيام — قد بلغت الذروة. وتبين التناقض فى الحركة العربية عامة فى المشرق . . وعلى صليل السيوف ودوى الرصاص فى جبال الشمال بالوطن العراقى ـ وذلك قبل أن يتدارك الأمر إسلام الرئيس عارف وحكمته ـ كان لابد أن تطرح القضية بوضوح تام . . وبصراحة . . مهما تكن الصدمة للبعض . . فإن الصدمات هى طريق الشفاء لمرضى العقول . . أما مرضى القلوب فلا دواء لهم . .

وفى اعتقادى أن أزمة المشرق العربى . . أو أزمة الحركة العربية هو ذلك الجفاء بينها وبين الإسلام . . محاولة خلق قومية علمانية على الطراز الاوروبى . . دون مبرر أو سند تاريخى أو قومى .

ويمكن أن نرجع سر المفهوم القاصر للقوميةالعربية .. إلى أن الحركة التى يمثلها البعث والتيارات الدائرة فى فلكه هى من بقايا مايسمى «بالثورة العربية » . . والتى صنعها الانجليز لتدمير تركيا عدوتهم فى الحرب العالمية الأولى .. والتى كانت هى والاتحاديين ثم الـكماليين مخططا انجليزيا لتمزيق أقوى رابطة تهدد امبراطوريتهم الجديدة فى آسيا العربية . .

الثورة العربية كما رسمها لورنس وقادها ، كانت ترى لنفسها هدفا واحدا هو تحطيم تركيا . . وإجلاء جيوشها عن المنطقة الواقعة بين شرق السويس وغرب الخليج العربى . .

ومن الطبيعى أن هذه الحركة التى عبئت ضد الخليفة ، تتنافر مع أى تفـكير فى الوحدة الإسلامية . .

وكان من الطبيعى أن تتجاوب هذه الحركة التى صنعها وقادها لورنس، مع الغرب . . وأن تنحصر دائرة نشاطها فى مايعرف بسوريا الـكبرى أو الهلال الخصيب . . فلم يكن للانجليز مصلحة فى إثارة ثورة فى مصر التى يحتلونها فعلا . . ونفس الشىء بالنسبة لفرنسا فى المغرب العربى . . كذلك لم يكن من المعقول أن يقبل المصريون على ثورة يقودها ضباط المخابرات الانجليز ضد تركيا . . ومصر يحتلها الانجليز . . ولا تشكل تركيا أى خطر عليها .. ورغم اشتراك الجنود المصريين اشتراكا فعليا فى الثورة العربية ، ومساهمتهم فى هزيمه تركيا فى الجزيرة والشام .. ورغم اشتراك

كبار العسكريين المصريين من أمثال عزيز المصرى .. إلا أن الروح العربية الأصيلة فى مصر كانت تنظر ببرود لهذه الحركة التى تتحالف مع العدو الحقيقى الذى يهدد البلاد العربية .. وهو الإستعمار الغربى . .

ولم يكن المصريون وحدهم فى ذلك ، بل شاركهم كل الذين ابتلوا بالإستعمار الغربى فى المغرب العربى ، كما يروى عماراوزيجان عن الجزائريين الطيبين الذين كانوا ينتظرون أسطولا يرسله السلطان من أسطنبول ، فيخلصهم من الاحتلال الفرنسى .

وكذلك العناصر الواعية فى المشرق العربى ، التى كانت تدرك خطورة الإستعمار الأوروبى الذى يزحف ليرث العرب من الحكم التركى ، والذين كانوا يعلقون الآمال على وحدة إسلامية بين العرب والترك فى ظل حكم ديموقراطى مزدهر يقف ضد الزحف الأوروبى[1] . . حتى خابت آمالهم فى الأحرار الأتراك الذين تبين أن السم الغربى قد وصل إلى نخاعهم . . ولم يكن أتاتورك أقل من كرومر . . خدمة لأهداف الاستعمار . .

فلما سقطت الأمة العربية كلها فريسة للاحتلال الغربى ، وانتهت الخلافة ، وشرد الانجليز الشريف حسين بعد ما تجرأ على الدعوة لها . . اتجهت الحركة الوطنية العربية ضد هذا الإستعمار الذى فاق فى إجرامه كل ما ارتكبه الترك والتتار . .

وهكذا نرى أن الحركة الوطنية فى المغرب العربى التى لم تخض حربا

---

(١) تأمل موقف شكيب أرسلان ورشيد رضا . . وكيف حرص لورنس على إبعاد الأمير عبد القادر الجزائرى من سوريا . .

ضد تركيا ، لم تتعرض لهذه الفجوة بين العروبة والإسلام[1] . . بل كانت عروبتها فى إسلامها ، وإسلامها هو وطنيتها . . بينما ظلت الحركة الوطنية فى المشرق تشكو هذا الإنفصام ، فقد ورثت شعار القومية العلمانية، الأقليات التى سارت على مبادىء ومفاهيم « لورنس » بعد أن أذكى الإستعمار روح الطائفية فيها ، ومزق الشام شر ممزق . . وأثار مخاوفها بحركات دينية إسلامية مشبوهة . . فتحصنت هذه الأقليات فى الشام بالذات بفكرة القومية العلمانية على طراز أتاتورك . . وسار فى تيارهم بعض المصريين .. ولعل ذلك يفسر عداء سلامه موسى للطربوش ، وتحيزه للقبعة بلا حجة.

---

(١) هذه واقعة يرويها الرئيس الحبيب بورقيبة : « كان الفريق الثانى يبحث عن اظهار الرابطة الموجودة بين تونس والدولة العثمانية املا فى أن تكون درعا لصيانة البلاد إذا ما ارادت فرنسا الاعتداء عليها . . وقصد خير الدين باشا إلى اسطمبول عام ١٨٧١ أى بعد هزيمة فرنسا فى حربها مع المانيا بقليل سعيا لاغتنام فرصة ضعف فرنسا . فركب مركبا قاصدا الاستانه ليأتى للباى بوثيقة (فرمان) ولايته على تونس حتى تظهر تونس أمام فرنسا جزءا من الامبراطورية العثمانية . لكن فرنسا فى حالتها تلك على ضعفها وانهزامها ورغم انها لم تبرم بعد الهدنه مع المانيا وما زالت أراضيها محتلة تفطنت لغاية رحله خير الدين وقاومتها رغبتها فى بقاء تونس شكليا مستقلة ليسهل ابتلاعها بدون حدوث مشاكل عالية مع السلطان العثمانى والدول المرتبطه معه مثل روسيا وبريطانيا . فما ان غادر مركب خير الدين باشا الساحل التونسى حتى بدا يطارده طراد فرنسى (فرقاطه) وأراد الطراد أن يمنعه من مواصلة الطريق وحدث تساؤل وتململ على متن المركب التونسى لكن خير الدين أمر بمواصلة الطريق ، وأسرع المركب إلى مكان ضيق لا يستطيع أن يلاحقه فيه الطراد الفرنسى . فوصل المركب إلى اسطمبول ورجع خير الدين بالفرمان باعتبار تونس جزءاً من الامبراطورية العثمانية (ص ٢٠ مدخل إلى تاريخ الحركة القومية)

واحدة معقوله . . إلا — فى نظرى — كون الطربوش يمثل عنده الرابطة العثمانية ، والقبعة ترمز لأوروبا . .

ولم يكن سلامه موسى يخفى اقتناعه بأن الزى يؤثر فى تفكير مرتديه .

كانت الدعوة للقومية العربية كما فسرتها الحركات الجديدة الناشئة فى الشرق العربى ، والتى تصادف ، أن قادتها من غير المسلمين . . تعنى رفض الوحدة الإسلامية ، استبعاد الإسلام . . على أساس فصل الدين عن الدولة. ولما كانت هذه المشكلة لا وجود لها فى المجتمع الإسلامى . . فقد أثمر الالحاح عليها ، عداء بين الفكر التقدمى العصرى وتاريخ وواقع الشعب العربى . . ثم كان الالحاح السخيف على الشعوبية ، والدخلاء ، وهو مالم يعرفه تاريخ العرب . . ولاعرفته أمتنا التى عاشت فى أخوة تامة مع الاقليات المسلمة من أكراد وشركس[1] وبربر . . وزنج . . وامتزجت دماؤنا وارتبطت آمالنا وآلامنا . .

وهكذا أصبحنا نجد متشدقين بالفكر التقدمى . . معزولين عن جماهير الشعب . . وعلى الجانب الآخر ، حركات دينية رجعية معزولة عن الفكر الثورى . .

وكان لابد لعربة الثورة كى تسير ، من أن يتم الربط بين العجلتين : الفكر الثورى . . والوجود القومى . .

كان لابد من اكتشاف ثورى لوجودنا . .

وضاعف من خطورة الحاجة إلى هذا الاكتشاف . . تنبه الغرب

(١) لا شك أن الشركس قد انصهروا فى الأمة العربية وأصبحوا جزءاً لا ينفصل عنها .

للنهضة العربية ، وشنه حلقة جديدة فى تاريخ الحرب الصليبية . .

والغرب فى عدائه لنا لم يفصل أبدا بين العروبة والإسلام ، وإن حاولت جامعاته وارسالياته أن تلقنا غير ذلك .. بل إن « مورو بيرجر »[1] مؤلف كتاب « العالم العربى اليوم » يقولها صراحة فى معرض الحديث عن معارضة الغرب للوحدة العربية ..؟ لقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام ، ونفس الشىء يمكن أن يتكرر اليوم حيث يحرز الإسلام انتصارات واسعة فى أفريقيا » .

والحق أن هذا هو السبب الحقيقى لمعاداة الغرب للوحدة العربية .

ليس من المعقول أن تكون هذه المعاداة من أجل البترول وحده ، كما يظن البعض ، فأوروبا تعادى العرب قبل اكتشاف البترول ، وكلنا نعرف كيف وقفت كلها ضد محمد على . . والبترول لم يبق فى عمره سوى ربع قرن فى أفضل التقديرات . . وحتى لو طال عمره ، فمن الثابت أنه مرتبط بأسواق الغرب على نحو لا يخشى الغرب عليه، مهما كانت الحكومة القائمة عند آباره [2] .

والغرب لا يرهب وحدتنا لمجرد إننا سنصبح مائة مليون . . فالهند أضعاف هذا الرقم ، وليس من يأبه بها . . لأن الهند لا رسالة لها . . والذين يتحدثون عن أمة واحدة . . ذات رسالة خالدة . . ينسون أن يحددوا لنا ماهية هذه الرسالة . . ولا نظن أن « العروبة » رسالة لأنها

---

(١) أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برنستون الأمريكية .

(٢) يجب أن نفرق بين البترول كسلعة أساسية فى أوربا وبين الأرباح الظالمة التى يحققها الوضع الاحتكارى الاستعمارى لشركات البترول .

لا تعنى سوى العرب . .

رسالة أمتنا . . هى الإسلام . . بها خرجنا للعالم . . فأسهمنا فى تطوير الحضارة البشرية ، وأثرينا تاريخ الانسان ، ودفعنا بالقيم الفاضلة إلى مدارج أعلى . . ومفاهيم أنبل . .

وبالإسلام تمتد حضارتنا لتلتقى فى أخوة مع شعوب آسيا وأفريقيا . . وهنا مصدر رعب الغرب . . بل لا يخفى أن سر تأييد الغرب للقومية العربية بمفهومها العلمانى والتى يبشر بها البعث وأضرابه . . هو خوفهم من قومية عربية إسلامية بدأت أعلامها تبزغ من القاهرة والجزائر . . وسر الحقد على القاهرة هو إدراكهم للروح الإسلامية التى لا تقهر فى مصر

إلا أن مصر لم تكتشف روحها العربية المسلمة إلا عندما خرجت لميدان السياسة العربية . .

قضية وجود

ولم يكن خروجنا للوطن العربى رد فعل . . حتى وإن بدا كذلك بل حتمية تاريخية نابعة من وجودنا . . جاءت فى توقيتها الطبيعى .. فنحن وبالتالى ثورتنا ـ ما دامت تعبر عنا ـ مصريون . . عرب .. مسلمون .

هذه قضية وجود . . لا خيار لنا فيها . .

إننا نرث الوجود كما نرث اسمنا وجنسنا ولوننا . . وبالطبع نستطيع أن نغير اسمنا وديننا، بل وأن نسلخ جلودنا ونستبدلها بأخرى . يستطيع محمد حسن الإسكندرانى .. أن يغير دينه وجنسيته ويتسمى بلويس مارتان ولكنه سيبقى أبد الدهر . . محمد حسن الاسكندرانى الذى تجنس بالجنسية الفرنسية وغير دينه واسمه إلى لويس مارتان .

نحن نرث الوجود . . لحظة ميلادنا فى عصر معين ، وفى نقطة معينة من خطوط الطول والعرض . . ولا نملك إختيار هذا الوجود . ولكننا أحرار فى تقويمه وتشكيله . . والانقسام داخله ، أو حتى التنكر له والتبرؤ منه ولكننا نحمل بصماته أبد الدهر .

والأمم الباقية ، هى التى تجعل وجودها فوق كل التفصيليات. والحضارة المزدهرة هى التى توفق إلى فلسفة أودين .. أو نظام . . يحمى وجودها وينشر هذا الوجود . .

وعندما تواجه أمة من الأمم تفوقا حضاريا يهدد وجودها بالفناء . . وتعجز عن منافسة هذا التفوق أو امتصاصه ؛ فإن أفضل ما تفعله هو الإحتماء « بقوقعة » وجودها المتخلف . . حتى تستجمع قوتها ، أو يتفسخ عدوها فتخرج من قوقعتها ، لتتمثل كل الجوانب المتقدمة من الحضارة المعادية وتطور حضارتها هي[1] .

---

(١) ذلك مافعلته اوروبا الصليبية في العصور الوسطى ، عندما جوبهت بتحدى التفوق الحضارى الإسلامى ، تقوقعت في تعصبها الأعمى ، لتحمى روحها من أن تسحق تحت تأثير تفوق خصمها . . وسأنقل هنا من مقال للكاتب الإيرانى حسن جوادى . . بعض مظاهر هذا التعصب : « انزعجت أوربا من وجود الامبراطوريه العربية ، واعتبرت تلك الامبراطورية عقابا من الله وخطرا يهددها بالفناء . وكان أكثر المروجين لهذا الرأى من الاسبانين الذين شاهدوا سقوط ملكهم وانضمام شبه جزيرتهم إلى الدولة العربية الكبرى . فوضع أحدهم . . بول الفاروس القرطبي . . كتابا يهاجم فيه تساهل السكان فى أوروبا مع المسلمين الذين جاءوا بلادهم . وقاده نفوره من التمايش السلمى بين عنصرى الاندلس إلى اتهام النبي العربى الكريم بانه هو المسيح الكذاب الذى تنبأ سفر « الرؤيا » بمجيئه عند نهاية العالم

« أما خارج اسبانيا وجنوبى ايطاليا ، حيث حصلت اتصالات مباشرة مع المسلمين ، فقد كان الصليبيون هم الذين كونوا الأوروبا فكرتها الأولى عن الإسلام والعرب ويستطيع المرء أن يتصور كم كانت تلك الفكرة عدائية وتمييزية قاتمة . . . »

فرانس بيكون . . اختلق على النبي . . والمؤرخ جلبرت يعترف وهو يؤلف كتابا عن تاريخ النبي . .أنه ليست لديه مصادرعربية ، ولكنه يقرر « لا خوف من الكلام عن رجل تفوق شروره أى ظلم يمكن أن نظلمه به . . » حتى الكوميديا الإلهية التى يصلى لها البعض فى بلادنا ، وضع دانتى فيها ، نبينا ، فى قاع الجحيم . .
=

والوجود قضية موضوعية ، فكما أنك لاتصنعه.. كذلك فهو لا يتوقف على إحساسك وحده . . بل وإحساس الآخرين بموقعه من وجودهم . . والمجنون الذى فر هاربا من الدجاج لتوهمه أنه حبة قمح . . رغم اقتناعه بحجج الطبيب . . المجنون كان لديه سببا وجيها جدا للفرار . . عندما قال

= ولما هجم المغول على الدولة الإسلامية ، فكر رئيس الحشاشين فى طلب النجده من المسيحيين ضد الزحف الوثنى . . ولكن مطران ونشستر فى انجلترا رد عليه « فلتتقاتل الكلاب فيما بينها . . حتى يفنى بعضها بعضا كى تقوم الكنيسة الكاثوليكية الجامعة على أنقاضها ، ويصبح العالم عندئذ ، بالفعل ، راعيا واحدا ورعية واحدة »

حتى لوثر قال « الكنيسة فى روما هى رأس المسيح الكذاب ، اما الإسلام فهو جسده »

واندريه درير ١٦٤٧ يترجم القرآن للفرنسية ويعتذر عن ذلك مؤكدا أن القارىء الاوروبى لن يتعرض لأى خطر من قراءة القرآن » حتىفولتير (اياه).. ابتدع افتراءات جديدة ضد النبى العربى حتى أن محمدا لم يظلمه أحد بمقدار ماظلمه هذا الكاتب الفرنسى المتحرر مما يدل على أن المتحررين لم يتحرروا من تعصبهم ضد الشرق . . هذا التعصب الذى تساووا به مع المحافظين . ولم يكن ادوارد غيبون خيرا من فولتير من هذه الناحية : لقد كتب باعتزاز وبهجة ان حكم الشرق البربرى » قد مضى عهده ولم يعد يهدد أوربا بعد » (عن مجلة حوار البيروتية عدد ٥) .

الذين تفتنهم موضوعية البحث العلمى فى الغرب ؛ عليهم أن يذكروا أن هذه الموضوعيهلمتظهر إلا بعد أناستتب الأمر للغرب ، وحقق تفوقه الساحق ، ولم يعد يضيره أن يتأمل بعين الإنصاف آثار حضارات بائدة . . أو الصفات المدهشة لكائنات منقرضة ! !

نعم ! أنا أقتنعت بانى لست حبة قمح . . ولـكن من الذى يقنع الدجاج ؟ .

وأغلب الظن أن بعضا من الذين دفنوا فى مقبرة بور سعيد ، وكتب عليهم جنود الإحتلال فى ١٩٥٦ : « عشرون مسلما » .. بعضهم ليس مسلما . . وبعضهم . . ربما كان ملحدا . . وبعضهم لم يدر بخاطره على الاطلاق . . أنه يواجه بريطانيا وفرنسا فى النصف الثانى من القرن العشرين بوصفه مسلما . . وهم مسيحيين . .

وبعض الذين استشهدوا كان فى ذهنهم كل حقائق المعرفة عن الصراع بين الامبريالية وشعوب المستعمرات . .

ولـكن من الذى يقنع الدجاج ؟ !

ونفس الشىء يقال عن البيانات الفرنسية التى كانت تعلن مصرع كذا من المسلمين فى معارك الجزائر . .

إذ لا يكفى أن ننفض عنا عروبتنا واسلامنا ، وان نقرر انتمائنا لحضارة البحر الأبيض ، أو اننا امتداد حضارى للغرب ، أو أن الحضارة العالمية واحدة . . فنحن سواء . . شركاء فى التراث الفرنسى مع شعب فرنسا . . لايكفى ذلك لـكى يقبلنا الآخرون . . بل يتحتم أن ننقل بلادنا . . أن ندير البحر الأبيض لـكى ننتقل بتلك القطعة من جسم الـكرة الأرضية إلى هناك ولما كان ذلك مستحيلا فإن التنـكر لوجودنا لايفضى إلا إلى الضياع . . إلى العبودية للآخرين . .

وكان طبيعيا أن تلتفت مصر إلى وجودها العربى المسلم ، عندما وجدت حكومة مصرية بعد ثورة ٢٣ يوليو .

وكان طبيعيا أن تصطدم مصر بكل الذين يخشون هذا الوجود والذين عملوا منذ أيام الحرب الصليبية على محو هذا الوجود . . اما بالقتل والإبادة

كما هو الحال فى إسرائيل. . أو بتغيير الوجود ، بالفرنسة كما حاولت فرنسا فى الجزائر ، لولا أن أعتصم الشعب هناك بوجوده الإسلامى ، فقهر هذا الوجود محاولات فرنسا لإفناء الوجود العربى . . وبذلك بقيت الجزائر ـ وبفضل الإسلام ـ للعرب ولافريقيا .

أو بتدمير الأساس النفسى لوجودنا ، عن طريق الغزو الفكرى ، بطبعنا من الخارج بالقسمات الغربية ، وتلقينا أن الصواب ـــ وليس الأقوى والأفضل فقط ـــ هو الغرب .

القبعة والردنجوت وشرب الشاى فى المساء ، وتدخين السيجار وشرب الويسكى . . ثم أسلوب الحياة الغربية فى الزواج . . التفكير . . الموسيقى الرقص . . الكتابة . . الشعر . . قواعد النحو . . السياسة . . الحب . . بل حتى العقيدة[1]

ومادام ذلك هو الصواب . . فأننا عندما نعود ونقيس وجودنا وتراثنا وتقاليدنا ، نكتشف حتما أنها لاتنطبق على هذه المقاييس[2] ، وبالتالى

---

(١) تأمل تفشى التعبير بالصليب كرمز فنى . حتى ليسجل احد النقاد فى إعجاب لابى القاسم الشابى انه أول من استخدم الصليب كرمز . . وكيف أن زينب بطلة قصة تلك الايام لفتحى غانم عندما تفكر فى حبيبها عمر تفتح التوراه لتقرأ نشيد الانشاد !!

(٢) تأمل هذا الاهتمام المزعج بما يسمى صعوبة اللغة العربية ، والمحاولات المحمومة التى تبذل لاستبدال حروفها . . والذين يحملون هم اللغة العربية ، لا يكلفون أنفسهم عناء البحث فى حال اللغه الفرنسية او اليابانية مثلا . . ولا يتساءلون لماذا لا يكتب اليابانيون بحروف لاتينيه بل لايتساءلون كيف استطاعت اللغة العربية بصعوبتها هذه أن تكون لغة الكتابة وبنفس حروفها للغات اخرى عديدة . . الفارسية . . التركية . . الكردية . . الهوسا . . السواحلى . . التركستانية . . الاندونيسية . . كيف استطاعت هذه الحروف ان تعبر عن كل هذه اللغات . . ويعجزها التعبير عن لسانها ؟ !

نديتها ، ونحاول جهدنا أن نعتذرعنها أو أن نتبرأ منها . . فنبدأ من نقطة الضعف ونحاول أن نقلد الكمال على الجانب الآخر . . فلا نكون على أحسن الفروض ، أفضل كثيرا من القرد الذى يلعب الشطرنج ويأكل بالشوكة والسكين.. مهما اتقن القرد هذه الحركات . . فإن الإنسان يظل طبعاً هو الأفضل . . وإذا كان حتما أن يبقى قرد وإنسان . . فخير للقرد أن يبقى قردا مكتمل القرودية سيدا فى غابته عن أن يتحول إلى مسخ ، يقلد الانسان ليضحكه فى السيرك . . فما بالك لو أصر الإنسان على تقليد القرد ليصبح فى جماله ورشاقته وسمو حضارته . . لمجرد أن دورة التاريخ قد جعلت هذا القرد أكثر رفاهية . .

خلاف حضارى

وهنا يثور سؤال . . هل هناك خلاف حتمى بين حضارتنا ، وبين الحضارة الغربية . . أما من سبيل لوجود حضارة إنسانية واحدة . تتمثل كل الناس ويتعايشون فى ظلها . ؟ !

التجربة والتاريخ تؤكدان أن مثل هذه الوحدة الانسانية لم تتحقق أبداً والطريق بعيد إليها . . فلم توحد البشر لا الفتوحات ولا الديانات . . ومنذ أن كان الشرق والغرب . . وهما فى صدام .

ولا بد قبل أن نشير إلى مظاهر الخلاف الحضارى بيننا وبين الغرب الصليبي . . أن نؤكد أن حديثنا يدور حول المسيحية الغربية ، باعتبارها وجود حضارى ، فلسفة حضارة معادية ، لا كدين ، ولا علاقة لها بمسيحية الشرق . . التى تكون جزءا عضويا من تاريخنا وحضارتنا ومكونات وجودنا . . وأنا أعتقد — رغم اعترافى بعدم تعمق — أن الخلاف بين كنيستنا المصرية وكنيسة روما . . هو فى حقيقته وجوهره . . خلاف حضارى[1]

(١) اخبرنى كاتب يابانى جاء لزيارة القاهرة فى مؤتمر الكتاب الافرواسيويين =

والفرق الحضارى ليس خلافا فى الآلات . . فالناس جميعاً يديرون الآلات على نحو واحد . . والصناعة اليابانية لا تختلف عن الصناعة الأمريكية اختلافا يبرر تميزها . . انما يختلف الناس حضاريا باختلاف نظرتهم للوجود وما يتفرع عن هذه النظرة : نظرتهم للانسان سيد هذا الكون ، وعلاقة هذا الانسان بغيره . . أو ربه . . وأهم من ذلك ، أو ربما نتيجة لذلك علاقة الانسان الفرد . . بالانسان الفرد . . الحب والزواج . . الأبوه والأخوة القبيلة . . الشعب . . اللون . . الجنس ..

لذا فنحن عندما نتحدث عن حضارتنا نعنى الإسلام . . حتى ولو كان لنا امتداد عربى قبل الاسلام . . ورغم اعتزازنا باطلال الحضارة الفرعونية أو السبأية أو الفينيقية . . وبذلك الشعب الذى عاش على نفس الأرض من آلاف السنين . . الا أن الأمر لايخرج عن دائرة الاعتزاز . . لأننا لسوء الحظ لاندرى شيئا متكاملا عن علاقاته الانسانيه ، ولا يمكن أن

= انه لاحظ ان تماثيل المسيح وصوره فى المتحف القبطى لا تحمل دماء . . بعكس تماثيل المسيح وصوره فى كنائس الكاثوليك . . وقال ان نفس الشىء يميز الايقونات المسيحية فى اليابان لأن الشرقيين ــ على حد قوله ــ يكرهون حمل الدماء وقال الكاتب اليابانى ، انه يؤلف رواية تاريخية عن دخول المسيحية إلى اليابان يثبت فيها أن الميسحية فى اليابان تحولت إلى لون من البوذيه . .

وأود أن اثبت هنا ملاحظة ذكية للأستاذ « حسين فوزى » فى كتابه « سندباد مصرى » رغم اعتراضى التام على روح الكتاب . .

الملاحظة هى أن المصريين ، قد رفضوا القول بطبيعة مزدوجة للمسيح . . فقال المصريون الاقباط بطبيعة واحدة الهيه ، وقال المصريون المسلمون ، بطبيعة واحدة بشرية . .

فتأمل كيف نتفق مسلمون ونصارى فى وجهة النظر ولو من دينين . .. ضد الفهم الأوروبى .

تحدد خصائص حضارية على تخمينات واستنتاجات ، وقراءات قريبة من المعنى لكتابات ممزقة .

لم يكن للعرب حضارة متكاملة إلا بظهور الاسلام ، ولم تمتحن حضارتنا إلا بعد أن خرجت من الجزيرة إلى ميدان التطبيق بين كافة الاجناس البشرية المعروفة . . واجتازت التجربة بنجاح . .

الإسلام هو التراث الحضارى للعرب .. مسلميهم ومسيحييهم[1] والتراث الإسلامى ، هو الحقيقة الأولى فى حديثنا عن التراث المشترك كإحدى مكونات الأمة العربية[2] .

وتعالوا نضع أيدينا على بعض خصائص حضارتنا . . بقدر ما يسع غير المتخصصين :

الانسان المسلم .. يؤمن إيمانا مطلقا بالتوحيد .. فالتوحيد هو جوهر الإسلام .. وفيه وصل إلى أكمل صوره .. الله فرد صمد .. والانسان إنسان لا تشوب الهية الله شائبه .. وما من بشر له على الناس فضل من الوهية . . والانسان المسلم . . يبدأ حراً .. طاهرا . خيرا[3] . . لأنه يولد مسلما . . بمجرد الميلاد .. حتى أولاد النصارى واليهود .. يولدون مسلمين : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فابواه يهودانه أو ينصرانه[4] .

---

(١) أشد معارضى هذا الرأى هو حزب البعث . . ولكنى عثرت على نص من منشور انتخابى قديم (٢٠ سنة) لمشيل عفلق حسبى أن استشهد به هنا : « نريد أن تستيقظ فى المسيحيين العرب، قوميتهم ، يقظتها التامة .. فيروا فى الاسلام ثقافة قومية لهم . يجب أن يتشبثوا بها ويحبوها لأنه متصل بطبعهم وتاريخهم » .

(٢) نورد هنا كلمة وليم مكرم عبيد الخالدة « أنا مسلم وطنا نصرانى دينا » .

(٣) من وجهة نظر المسلمين

(٤) حديث شريف

إذن فالفطرة خيرة . . والناس يولدون على الفطرة .. وهم ليسوا بحاجة إلى إجراء خاص يدخلهم فى عداد المؤمنين حتى يبلغوا سن الاختيار .. فيمارسوا شعائر الإسلام

وفى المقابل نجدان الحضارة الغربية تؤمن بأن الناس يولدون على الجانب الآخر . يولدون خطاة ولا بد من تعميدهم لـكى يتطهروا . ومن مات قبل أن يعمد لم يمت على الهدى .. لا بد اذن من تدخل البشر ، وقبل حرية الأختيار ..

وعند ما نموت نحن المسلمون .. فالأفضل أن يقول المرء الشهادتين مؤكدا إختياره ..

وفيما بين الميلاد والحياة تمضى حياتنا لاخضوع فيها لإنسان مهما كان ، ولا واسطة بين الرجل وضميره . . أى ربه . . ولا إذلال لهذا الضمير يكشف ضعفه أمام إنسان آخر . . بل نستطيع أن نخطىء وأن نتوب بيننا وبين ضميرنا سبعين مرة فى اليوم الواحد . . فيغفر الله لنا . .

وعندما نتزوج فنحن نفعل ذلك بارادتنا ، وفيما بين الرجل والمرأة لا دخل لثالث بينهما إلا لحفظ حقوق الطرف الضعيف وصيانة لمستقبل الأولاد . . وإذا شاء الزوجان الانفصال فأمرها بيدها وحدها . .

علاقات إنسانية . وإنسانية فقط ، تستمد قد سيتها واحترامها من إرادة الإنسان الحرة . .

وكلها عقود على الأرض تعقد ، وعلى الأرض تبقى أو تفصم . . والإنسان ليس عبدا لقرار يتخذه أو لخطيئة منذ ملايين الأجيال . . فما يعقده الانسان ، هو الذى يفصمه . . وما يرتـكبه ، هو مايحاسب عليه . .

أن شاء كفر وإن شاء آمن شرط أن يتحمل مسئولية قراره .. لا إجبار على الدخول فى طاعة الله . . فلا إكراه فى الدين .

والناس بعد ذلك سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربى على عجمى .. يؤذن لصلاتهم بلال الأسود . . ويخطط لحربهم سلمان الفارسى .. ويقود جيشهم العبد السابق . . أسامة بن زيد . .

والأقلام الصليبية لا تكف عن « الزن » حول قضية الرق فى الاسلام . . يتبعهم فى « زنهم » بعض المسلمين . . ناسين أن الرق لم يمح بقانون من أمريكا بلد الحريات إلا منذ قرن واحد فقط .. ناسين أن سفن أوروبا الكاثوليكية قد نقلت إلى أمريكا البروتستنتية ٣ ملايين عبد من انجولا وحدها[1] !.. اختطفوا بكل ضروب الخداع والإرهاب والوحشية .. ليباعوا فى أسواق الرقيق وبورصة العبيد فى العالم الجديد . . أرض الحرية والمساواة .

لماذا تعمى عيونهم عن تجارة الرقيق على بعدمائة عام ويذرفون الدمع على وجود رقيق منذ ١٣ قرنا ؟ ! !

لقد كان الرق ظاهرة إجتماعية مارسه وثنيون ومسيحيون ومسلمون..

ولم يلغ إلا بقيام الظروف المادية التى تكفل وتحتم الغائه .. ولكن موقف الإسلام منه أنصع من أن يلطخه السخام الصليبى .

---

(١) يقول جيمس ديفى فى كتابه « البرتغال فى افريقيا » حتى ١٨٣٢ كانت تجارة العبيد تمثل ٨٠ ٪ من مجموع تجارة انجولا . . ويؤكد أن هذه المستعمرة البرتغالية لم تفق بعد من آثار هذه النكبة التى ابتليت بها والتى سلبتها على أقل تقدير ٣ ملايين من شبابها بيعوا فى أسواق العبيد فى الأمريكيتين .

النبي قدوة المسلمين لم يكن له جوار ولا عبيد ، بل حرر عبده وتبناه ! لولا أن نزل القرآن ينهى عن ذلك التبنى . . لأن نسبة المرء إلى أبيه ! ولو كان عبدا ، أشرف له وأحفظ لانسانيته من أن ينسب ولو إلى محمد رسول الله . .

والمقوقس النصرانى ، عظيم القبط ، أهدى النبي جارية ، فاعتقها الرسول وتزوجها وولدت له أحب بنيه إليه وإلى المسلمين . . سيدنا إبراهيم . . الذى لو عاش لكان جدا لأولاد نبينا . . والذى يوم مات ظن المسلمون أن الشمس قد كسفت لموت إبراهيم ابن مارية القبطية الجارية . . التى ظل المسلمون يصلون عليها وسيظلون . . دون أن يغيروا حتى أسمها . . أو إخفاء دينها الأول[1] .

لاحاجة إلى تعداد كل مافعله الإسلام لتحرير العبيد . . فنحن لانرد على متعصب . . ولكن يدهشنا أن يثير هذا الحديث من يدعون الإيمان بتفسير مادى للتاريخ . . ويعرفون أن وجود نظام الرق كان مرحلة ضروريه ، لايمكن الغاؤها إلا بظهور النظام الرأسمالى وحاجته إلى العمل الحر . .

والمقارنة بين انسانيات الحضارات ، هى فى معالجتها للضرورة التاريخية . .

---

(١) ما أجمل لحن المساواة والتسامح نردده صبية لا نفقه شيئا فى الفلسفات.. ونحن لانزال بعد فى الكتاب . . ولا ادرى امازال اطفالنا يحفظون « اولاد النبي صلى الله عليه وسلم سبعة . . ثلاثة ذكور .. وأربع اناث . . وكلهم من السيدة خديجة إلا ابراهيم . . من مارية القبطية »

بين بعثات أوروبا التى كانت تجرى تعميد الرقيق بالجملة عند شاطىء المحيط الأطلسى . . والتى كانت تؤمن أن خير طريق لهداية الزنجى هو بيعه ليعيش فى مجتمع مسيحى[1]

وبين حضارة كانت ترى فى عتق الرقبة خير الفضائل .

ونظرة المجتمع الإسلامى إلى العبيد تختلف تماما عن نظرة المجتمع الغربى، فهى علاقة قانونية قد تنتقص من أهلية الخاضع لها . ولكنها لاتغير آدميته أبدا . .

فى أمريكا اليوم يرفض الطلبة البيض أن يجالسوا أحرار الزنوج . . . وينسفون الكنائس التى يدخلها أطفال سود ولكن شيوخ المسلمين لم يرفضوا منذ ألف سنة أن يقود جيشهم عبد ، وأن يتلقوا دينهم من عبد .

تأمل أوزيجان عند ما يتحدث عن العاهرة الأوروبية ترفض مراقصة « العربى » .

ولكن بنت عمة رسول الله تزوجت عبده زيد ، ويطلقها زيد ، فيتزوجها رسول الله . .

والعبد يستطيع أن يكون سلطانا لمصر . . فإذا أراد فقيه أن يضع حدا لإستبداده . . نقب فى أوراقه الشخصية ومستنداته القانونية . . ليقيم عليه الدعوى بانه لايزال عبدا لم يتحرر بعد ، رغم توليه عرش السلطنه !!

تأمل مغزى هذه القضية الشهيرة . . فلم يقل المسلمون . . كيف يحكمنا عبد . . بل كيف يحكمنا عبد لم يتحرر ؟ . .

---

(١) البرتغال فى افريقيا للكاتب الأمريكى « جيمس ديفى »

وتأمل أبو بكر يشترى بلال ويعتقه . . فيقول عمر بن الخطاب : أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا . . بلال العبد الأسود باسلامه وتقواه سيد. عمر بن الخطاب . . أمير المؤمنين . . الفاروق .. ثانى الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم جميعا .

لاعلينا . . أن إيمان الإسلام المطلق بالمساواة بين البشر . . كان السبب الأول فى انتشاره فى آسيا وإفريقيا . . حتى سموه دين الملونين والمتتبع لثورات أوروبا يجدها كلها محاولة للحوق بالإسلام . .

البروتستنتية ، كما يجمع العارفون كانت نتيجة الاتصال بالعالم الإسلامى خلال الحروب الصليبية . . وهى فى جوهرها . . أو فى بدايتها محاولة لتحرير الأفرادمن سيطرة الكنيسة ليصبحوا كالمسلمين .. حيث لا كنيسة ولا كهنوت ولا صكوك غفران .. ولكن البروتستنتية تحولت إلى كنيسة بدورها .. ثم كانت الثورة الفرنسية .. إلغاء للكنيسة بل وللدين .. الذى بدا أنه لاسبيل إلى فصله عن الكنيسة وسطوة الكاهن ..

ودعت الثورة الفرنسية إلى المساوة .. وإذا ماصرفناالنظرعن التفرقة الاقتصادية ، فلا جدال فى أن الثورة الفرنسية ، وما اعقبها من ثورات بورجوازية قدحققت المساواة بين أبناء المجتمع الغربى.ولكن هذه المساواة كانت على حساب الانسان غير الأوروبى[1] ..

---

(١) الغت الديموقرطية فى اوروبا الألقاب . والاسلام لم يعرف الألقاب .. وأول ما ظهرت مع الاتراك ولكنها كانت رتبا عسكريه ولا تورث . . ولا يزال الغربيون الذين يأتون الى بلادنا يقفون حائرين امام ما يسمونه فوضى الاسماء . . واختفاء ما يعرف باسم عائلة .. واتاتورك عندما اراد أن يتفرنج نص على ضرورة حمل اسم عائلة . . . الإسلام لم يعرف ذلك لكى لاتتوارث الامتيازات الطبقية . . فالمرء باسمه وفعله . .

وهنا نصطدم بظاهرة لم تعرفها حضارتنا ونعنى بها « ازدواج الضمير »
وهو ذلك الذى يجعل مواطنا صالحا ورجلا فاضلا ، لا يخالف القانون
ولا يرضى بالإعتداء على الحريات ، ويثور بل يحمل السلاح إذا سمع أن
حكومته قد اعتدت على متهم من مواطنيه ، أو عذبته لانتزاع اعتراف منه
ويضحى بحياته متطوعا للقتال مع اليونانيين الثائرين ضد الظلم التركى ويؤمن
أن المتهم برىء حتى تثبت ادانته[1]

هذا المواطن الذى لاينام الليل إذا سمع باعتداء على الحريات فى لندن
وباريس وروما .. ماأن يركب البحر وينتقل جنوبا أو شرقا حتى يستحيل
إلى وحش كاسر ، ويخترع من افانين العذاب ، والاضطهاد الفردى والجماعى
ما تعجز عنه أقسى الوحوش ، وما يفوق عهود البربرية . .
جيش نابليون . . أبناء الثورة الفرنسية التى أعلنت الحرية والاخاء
والمساواة .. نهبوا وسرقوا وضربوا وعذبوا المتهمين فى مصر .. واعدموا
سليمان الحلبى على الخازوق . . وقتلوا الأسرى المسلمين فى يافا حلا لمشكلة
تغذيتهم والمواصلات !

وإذا كان المرحوم « محمد صبحى وحيده » فى كتابه ، الذى يمثل قمة التأثر
بالغزو الفكرى يدهش لأن مشايخ القاهرة قد ألقوا بكل احتقار الشارة
المثلثة الألوان ورفضوا تعليقها على صدورهم ، وهى التى كان أحرار أوربا
يتخاطفونها . . على حد قوله .

---

(١) تأمل المبدأ الإسلامى . . « ادرأوا الحدود بالشبهات » . . قبل ظهور مبدأ المتهم برىء .. إلخ » باثنى عشر قرنا . . وخلال قرون رهيبة ، كان المبدأ القانونى فى اوروبا . . المتهم مذنب حتى تثبت براءته . . فى هذه الأيام كان الإسلام يأمر المحققين بتلمس البراءة للمتهم بالشبهات . . أنه ام القاعدة القانونية « الشك يفسر لصالح المتهم »

فأننا لا ندهش ولا نعجب بل نفهم ونكبر موقف شيوخ الأزهر .. فماذا تعنى لهم شارة فرنسا .. حرية .. إخاء .. مساواة ؟الاخاءوالمساواة فى الاسلام .. لا يطاولهما نظام آخرإلى يومنا هذا .. والحرية ينتهكها حملة الشارة بأفظع مما فعل التترى ..

وثوار فرنسا أبناء مقتحمى الباستيل ، بلهم بأشخاصهم الذين خرجوا من خلف المتاريس بعد أنأسقطواشارل العاشر .. ماذا فعلوا فىالجزائر؟!

البعض يحلو له أن يفرق بين فرنسا الثورة .. وفرنسا التى تحولت بعد ذلك إلى دوله استعمارية .. ونحن نرى أن هذه التفرقة لا محل لها ، فيما يتعلق بنا شعوب الشرق .

فرنسا الثورة ..رأيناها فى مصر .. ورأينا كيف نكل نابليون محرر أوربا .. بشعب مصر عند ماثار من أجل الحرية ..

وفرنسا ثورات ١٨٣٠ هى التى احتلت الجزائر ، وفتكت بشعبها وطاردت مساجده وحولتها لكنائس ..

لذا فعندما يتغنى كاتب غربى بحرية وإخاءومساواة أوربافهو لايطربنا .. أما عندما يتغنى بها كاتب عربى ، فأننا نحس مرارة الجرح فى قلوبنا .. لقد جربنا من هذه الحضارة وفى أرقى عصورها ألوانا من القسوة والتنكيل..

ومع ذلك فليست القسوة ولا التنكيل ، هى ما نعترض عليه هنا .. كل الحضاراتقد عرفت التنكيل، ومارست الاضطهاد .. ولكنالصفة المميزة ، التى تفرق بيننا وبين الحضارة الغربية ...هى ازدواج الضمير .. النابع من إيمان حتىالنخاعبأن الناس ليسوا سواسية .. وأن ضربة السوط فوق ظهر الأبيض تؤلم ولكنها على ظهور الآخرين تهذيب واصلاح

فى حضارتنا .. قامت حكومات استبدادية ، وقتل الناس بعضهم بعضا، ودسوا السم حتى لا خوتهم . . ولكن ذلك كله لم يشبه شائبة من التفرقة العنصرية أو العرقية ،. لم يكن هناك من يرى أن قتل الأسود تحضرا .. أو أقل بشاعة من قتل الأبيض .. أو أن الجريمة فى القاهرة مباحة .. ومحرمة فى دمشق .[1]

المساواة التامة حتى أمام الإرهاب الوحشى . . .

هذه المساواة بين الأجناس العديدة والقوميات والألوان المتنافرة التى كونت المجتمع الإسلامى ، والتى سمحت لكل متفوق بأن يطمع ويتطلع إلى الصداره دون إعتبار للونه أو جنسه . . هذه المساواة هى التى جاءت الشيوعية تحاولها باسم العالمية . . باسم الأممية . . لافرق بين لون أو جنس أو عرق . . . كلمة « سوفيتى » تجب كل ماسبقها كما كانت كلمة «مسلم» .. منذ أربعة عشر قرنا .. ولكن هل وصلت إلى ماوصل إليه الإسلام فى هذا المضمار ؟ ! مازال الوقت قصيراً .. والنتائج أقل من أن يستند إليها وحدها ..

ننتقل إلى سؤال جديد .. هل مازالت أوروبا عند صليبيتهما .. أم أن الصليبية إنتهت بانتهاء الحروب الدينية . . أذكر أن سلامه موسى كان ينفى القول المشهور عن اللنبي . . يوم دخل القدس وقال « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وحجة سلامه موسى ، هى أن اللنبي كان عضوا فى جمعية الحادية .. ولا غرابة .. بل أن ذلك يؤكد وجهة نظرنا .. فالدين قضية وجود .. لا تدين .. وحرب الغرب ضدنا ليست حربا لأهداف

---

(١) راجع باب الأسد والشغبر الناسك لابن المقفع

دينية ،[1] بمعنى أنها رسالة هدى ، ومهمة تبشيرية ، كما يصورها الغرب .. أنها حرب للسيطرة ، للاستغلال ، لتحقيق التفوق وضمان استمراره . . ومع ذلك فهى حرب صليبية .. تعادى الإسلام والمسلمين ، لأن المسلمين هم عدو الحضارة الغربية .. ولاأشك أن من يعادى الإسلام ، ويقتل المسلمين، مضطر لأن يرفع شعارات الحرب الصليبية

صحيح أننا نعلم ، أن التمييز العنصرى ، فى جنوب أفريقيا ، أو فى أمريكا ، ليس فى حقيقته قضية لون ، بقدرما هو استغلال ، وحاله تمكن البيض من الحصول على إمتيازات أكبر . . ورغم ذلك ، فنحن نسميها حرب عنصرية.. ولايمنعنا أدرا كنا لحقيقة الدوافع .. من تسمية الصراع نفسه . . ونفس الشيء بالنسبة للحرب الصليبية . . أوروبا كانت تحركها الصليبيه عندما جاءت تنتزع بيت المقدس أيام ريتشارد ولويس القديس الذى حوله المصريون إلى سنط الوز !

وهى أوروبا الصليبية التى أبادت الإسلام والمسلمين من أسبانيا فى سنوات . . بينما ترك المسلمون الأديان الأخرى قرونا . . حتى جمعوا جموعهم . . ومحوا كل ظل للاسلام[2] . . والتى اعتبرت اكتشافها

---

(١) ،ورهيد نفسه يقول فى كتابه « النيل الابيض» وهكذا ترى أن المسيحية قد تسللت إلى وسط أفريقيا فى حماية المسلمين الذين رحبوا بالمبشرين ، كرفاق متمدينين يواجهون معابربرية افريقيا . . وليس قبل السبعينيات فى القرن التاسع عشر عندما تنبهوا إلى الدمار الذى يصيبهم على يد المسيحيين وكانت ثورة عرابى وثورة المهدى ، ومطاردة المبشرين فى يوجندا هى ثمرة هذا الادراك .

(٢) فى قرطبه وحدها . . كان اربعمائة مسجد . . وليس فى اسبانيا كلها اليوم مسجدا واحدا ! ! فرنسا الثورة . . والحرية والآخاء حولت مساجد الجزائر إلى كنائس . . وعمر بن الخطاب فى القرن السابع . . يرفض الصلاة فى الكنيسة حتى لاينتزعها مسلمون متعصبون من بعده ويقولون « هنا صلى عمر ! ! »

لطريق رأس الرجاء الصالح تطويقا للاسلام ، وهى أوروبا التى يصفها؟ عمار اوزيجان فى كتابه « الجهاد الأفضل » هى أوروبا التى يروى « يوسف الرويس » الزعيم التونسى « أن الفلاحين فى جنوب فرنسا ، كانوا يغلقون بيوتهم فى ٩٥٦ ، ويفرون إلى الشمال خوفا من المسلمين الزاحفين . .

. . ولكن هل لازالت أوروبا عصر النهضة .. والفضاء والصواريخ عند صليبيتها . ؟ !

لنسمع هذه الشهادة . .

الشاهد هنا هو « عمار اوزيجان » وزير الزراعة الجزائرى . . الثائر الإشتراكى ، الذى يتحدث وخلفه تاريخ ثورى . . يخرس ألسنة المكابرين . . وبين يديه نصرلا يقبل التأويل . . هو الجزائر العربية الاشتراكية المسلمة . .

« عماراوزيجان » الذى بدأ حياته الثورية ماركسيا شيوعيا .. يصل من خلال الثورة إلى روح الإسلام وإلى الوجود الإسلامى . . وهو يتحدث فى كتابه الخالد « الجهاد الأفضل » عن تاريخ فرنسا فى الجزائر ، ومحاربتها الدين يقول :

« إن العدو الإستعمارى كان أكثر ذكاء حين كان يهدم الجوامع ويحولها إلى ثكنات أو اصطبلات » .

« كان الدين الإسلامى وثاقا يمتن اتحاد مختلف العناصر فى القوة الشعبية التى تزخر بها بلادنا » ،

« لن نشدد الكلام على الروح الصليبية التى تجلت فى تحويل الجامع

إلى كنيسة ، وإقامة الانصاب التذكارية تعلق عليها الصليب الحديدى ، فوق العبارة اللاتينية (الصليب ينصرك) ولن نشدد على شعارات المدينة ، كشعار مدينة الجزائر الذى انتشر فى العالم كله بواسطة الطابع البريدى الذى رسم عليه صليب ضخم فى السماء ، منتصرا على هلال صغير منكس فوق البحر »[1] .

لا أدرى كيف لانغضب لهلالنا . . مادام تنكيسه يرمز لأنهيار وجودنا ، ولخضوعنا لسيطرة المحتل الأجنبي . . وهل التقدمية أو الثورية أن نساهم مع المحتل فى جذب هذا الهلال إلى أعماق البحر . . أم فى رفعه إلى عنان السماء ؟ !

نعود إلى سماع شهادة أوزيجان :

« لم تكن كاترين الثانية الروسية تجهل تأثير هذه القوة الجذابة على النفوس ، حين تطاولت على سلطة البابا بيوس السادس ، فحددت الابرشيات وأنشأت كرسيا أسقفيا عهد به إلى كاهن بسيط يمارس السلطة على جميع الكاثوليك فى دولتها . . ولم تكن تجهل أيضا تواشج الإسلام والحياه الإجتماعية حين اعلنت الحرب على دين محمد . . الذى تدين به بحماس شعوب آسيا الوسطى[2] .

« كان الوعى القومى فى قرنه فكرة الوطن بالعروبة وبالاسلام الذى عاد عاملا من عوامل التقدم ينمو ويزداد سموا وقوة »[3]

انتهت شهادة عمار أوزيجان . . وله أقوال أخرى . .

---

(١) ص ٢٩ ـ ٣٠
(٢) ص ٣٤ .
(٣) ص ٣٦ .

اليس من الطبيعى فى بلد كان احتلاله فىمفهوم فرنسا . . فرنساسقوط الباستيل وفولتير . . وروسو . ، فرنسا الحريه والإخاء والمساواة . . فرنسا هذه فهمت احتلال الجزائر علىأنه نصر للصليب على الهلال . . اليس من الطبيعى أن يكون أول لحن جزائرى بعد التحرير هو

مبروك يا محمد عليك

الجزائر رجعت إليك

ما بين طابع البريد بصليبه المنتصر . ، وبين اللحن المسلم . . قصة صراع يقول الن مورهيد . . « إنه لن ينتهى . . »

ونستدعى « الن مورهيد » للشهادة . .

الن مورهيد ، كاتب أمريكى أشهر من « فرنسوا ساجان » . . ومؤلفاته تطبع فور صدورها بجميع اللغات الحية . . ومؤلفاته تدورحول فتح أفريقيا « النيل الأبيض » « والنيل الأزرق » وتقام ضجة حول هذه المؤلفات وصل صداها إلى بعض صحفنا . . والمؤلفات باختصار ليست إلا لونا من أدب الأساطير (العلمية) التى تتغنى بأمجاد وفتوح الصليبين ضد الإسلام والمسلمين . . كقصص الظاهر بيبرس مثلا . . مع الفارق . . إن قصص الظاهر بيبرس كانت تذكى حماس المسلمين ضد الغزو الأجنبى . . بينما تذكى ملاحم « مورهيد » حماس الغزاة المحتلين للاستمرار فى استعمارهم وفارق آخر أن قصص الظاهر وضعت من سبعة قرون . . أما قصص «مورهيد» فتوضع فى ١٩٦٠ . . . والدافع إليها هو استقلال أفريقيا . . وارتباط هذا الإستقلال بانتشار الإسلام دين المساواة . . وإن كان الكتاب

الصليبيون يخـــدعون جماهيرهم ، بالزعم أن سر هذا الانتشار هو تعدد الزوجات ! . . الأفضل أن نسمع شهادة الصليبي الن مورهيد[1]

تحت عنوان « تمرد المسلمين » . . يحكى عن ثورة عرابى . . وثورة المهدى ! ! وفى ملحمة غوردون البطل المسيحى ينقل عنه أنه كتب لصديق له حول إسلام سلاطين عندما وقع فى أسر المهدى :

ليس بالأمر الهين . . لأوروبى أن ينـكر ديننا خوفا من الموت ..[2]

« كان لدى غوردون ما يقوله عن التناقض بين المسيحية والإسلام فى الشرق الأدنى . . : « إن الخطر الذى يجب أن نخشاه . . ليس زحف المهدى شمالا عبر وادى حلفا . . بالعـكس . . إنه لأمر بعيد الاحتمال أن يتجه شمالا . . أن الخطر من طبيعة مختلفة تماما . . أنه ينبعث من وجود قوة محمدية [3] منتصرة عند حدودكم . . الأمر الذى سيثير الشعوب التى تحكمونها . . فى كل مدن مصر سيقوم احساس بأن ما فعله المهدى يمكن أن يفعله المصريون . . وكما طرد الدخلاء والـكافرين يمكنهم أن يفعلوا نفس الشىء . . وليست انجلترا وحدها التى ستواجه هذا الخطر . . إن نجاح المهدى قد أثار المخاطر فى آرابيا وسوريا[3] » .

---

(١) يقول المؤلف أن الذى اقترح عليه تأليف الـكتاب هو الحاكم العام البريطانى فى أوغندا . . وانه راجعه مع حاكم تنجانيقا والسفير البريطانى فى السودان

(٢) ص ٢٣٤ .

(٣) الغرب يسمينا « محمديين » لأنه يتهمنا بعبادة محمد ولا يلقبنا إلا بالوثنيين .. الوثنية وعبادة الإنسان الذى يتحول إلى إله .. متأصله فى الانسان الاوربى . . بينما ينزع الشرق والغرب خاصة إلى التوحيد . . فنحن مسلمون ، ومعنا النصارى كما يسمون فى المشرق العربى .

« إن العداء للمهدية فى أوروبا كان عميقا جداً . . كانت أوروبا تحس أن العقيدة المسيحية نفسها تواجــه تحديا من هؤلاء القتلة المتعصبين فى السودان[1]

« أقام المهدى ما يشبه فردوس محمد : حديقه باردة . . ونساء جميلات وفى الليل تدخل ٤ حوريات خيمته . . »

وقد فهم أنه ما من حوريه يحق لها أن تتضـــايق من وجود الأخريات . . »[2]

وينهى فصل « التمرد المسلم » بهذه العبارة « الصراع بين الاسلام والمسيحية لم ينته . فقد كانت هناك جماعة أوروبية لا تزال مسيطرة على منبع النهر . . وكانوا مصممين على الا يسقطوا »

ويقول « فى نهاية ١٨٨٣ كان يمكن القول بأن الصراع بين الإسلام والمسيحية قد وصل إلى نتيجة مشرفة للطرفين ، فقد استولى الإنجليز على مصر ولـكنهم خسروا السودان

والفصل التالى عنوانه « النصر المسيحى » [3]

---

(١) وكانوا يلقوننا فى مصر والسودان . . ان ثورة المهدى قام بها تجار الرقيق احتجاجا على الغاء الرق . . وضد الإستبداد المصرى . .

(٢) الن مورهيد يعرف كل شىء عن الإسلام . . ولـكن هذا السخف للاستهلاك الصليبي فى الغرب .

(٣) بعض صغار الاساتذة الذين تعلموا التفسير المـادى للتاريخ حديثا يستنكرون علينا أن نفسر التاريخ دينيا . . فارايهم فى استاذ مثل مورهيد

ويقول مورهيد : لقد انتهت هذه القلاقل (ثورات عرابى والمهدى) كما رأينا بالهزيمة الساحقة للاسلام على ضفاف النيل (! !) ولكن ثبت إنها هزيمة مؤقتة ليس إلا . . ومنذ سنة ١٩٠٠ وهناك تقدم منتظم للاسلام فى شرق ووسط إفريقيا .. وفى الوقت الحاضر يكسب المسلمون مؤمنين جدد أكثر من المسيحيين .. كما قال « رولاند اوليفر » إنهم يكسبون السباق . . وأوغندا تعتبر الآن مسيحية .. ولكنها ستستقل قريبا (! !) وكل من مصر والسودان تحت حكم مسلم . لذا فما من رجل عاقل ، يغامر بالقول بأن ذلك هو نهاية الأمر .. التناقض بين الدينين . . الشرق ضد الغرب . . يبدو كأنه جزء دائم من الواقع الأفريقى ، وهذا الصراع يمضى أحيانا تحت الأرض ، وأحيانا فوقها . . ولكنه مستمر ومحتوم كالنيل نفسه . »[1]

انتهت شهادة ألن مورهيد .. فى كتابه النيل الأبيض

نستمع إلى شهادة مجلة التايم الامريكية عدد ١١ يناير سنة ١٩٦٢ تحت باب الدين . .

كتبت المجلة : الانتشار السريع الذى يحققه الإسلام فى أفريقيا اليوم ظاهرة لم يسبق لها مثيل منذ أن نشر المحاربون العرب بحد السيف عقيدة

يؤرخ ثورات افريقيا فى القرن التاسع عشر وفتحها تحت عناوين « التمرد المسلم والنصر المسيحى » وذلك فى كتاب صادر فى ١٩٦٠ ؟ ! بل ويصف غزو فرنسا لتونس فى ١٨٨١ على أنه انهيار لمعقل حصين من معاقل الإسلام فى افريقيا

(١) ص ٣٧٦ .

محمد عبر ثلاث قارات .. وفى القارة المظلمة اليوم مائة مليون مسلم ، ولكن تعاليم محمد البسيطة تضيف إليهم ٩ ملايين مسلم جدد كل عام أى تسعة اضعاف ما تكسبه المسيحيه .. ومع انتشار الاسلام تنمو أحلام الوحدة الإسلامية .. امبراطورية ناصر .. التى يسعى لها المجلس الاسلامى الخاضع لإشراف الحكومة المصرية ، والذى يعد إحدى المؤسسات التبشيرية الكبرى فى العالم . . ويذيع المؤتمر من أذاعته القوية رسالة القرآن لمدة ١٢ ساعة بثمانى لغات يوميا . . ويقدم ١٣٠٠ منحه دراسية لشباب المسلمين فى الجامعات المصرية .. ويرسل مصاحف للقادة فى أفريقيا وآسيا ومنهم جومو كينياتا الذى تلقى أخيرا مصحفا فاخرا مع رساله رقيقة من عبد الناصر . . ومطابع المجلس الإسلامى التى لا تكل تغرق أفريقيا بنسخ رخيصة من القرآن الكريم . . » [1]

بالطبع . . لا يهمنا مدى الجدية فى إتهامات التايم ، بقدر ما يهمنا أن هذه هى الفكرة التى تقدم للمسيحى الغربى لاثارة حماسه ، وكسب تأييده لمقاومة أستقلال أفريقيا ، والوقوف فى وجه القاهرة التى تنشر الاسلام وتسعى للوحدة الإسلامية . . وعندما تعمد مجلة مثل « التايم » إلى التهويل والتهويش . . فإن الأمر خطير . .

وشاهد آخر :

لويس لوماكس . . وهو للأسف زنجى أفريقى ولكنه باع قلبه وضميره للاستعمار الغربى . . أجداده خطفوا من افريقيا . . وأجرى

(١) سيد هش التقدميون . . المتمدينون . عندما يعلمون أن كبرى المجلات الأمريكية مثل « التايم » بها باب دائم عن الدين . . بينما يخجل الواحد منهم لإذا استشهد بآية قرآنية . . ويعير غالى شكرى عبد الحميد جوده السحار بعدد الآيات القرآنيه فى قصصه ! !

تعميدهم كما يصف « جيمس ديفى » على هذا النحو : « لم يكن هناك متسع من الوقت لاجراء الطقوس المسيحية . فكان يجرى تعميدهم بالجملة عند الشاطىء قبل أن تجرهم السلاسل إلى السفن المبحرة إلى العالم الجديد . . لضمان الخلاص لارواحهم . الشىء الوحيد الذى لا يباع . . » ولكنه يعتبر نفسه جزء من الحضارة الصليبيه ويستغل لونه الأسود ، ليلعب دور الحاج أو التاجر الأريب الذى تحدثنا عنه قصص ألف ليلة . . الذى كان يأتى من بلاد الافرنج فيدعى الاسلام ليقيم بيننا يجمع المعلومات التى توجه وترشد زحف الأساطيل . . ،

والشهادة التى نسجلها هنا من كتاب وضعه الزنجى الأمريكى لويس لوما كس باسم « الأفريقى النافر » . . الكتاب يحاول اخافة الغرب من زحف أفريقى تقوده القاهرة ، وباسم الاسلام طبعا . . وسننقل فقرات من حديث للمؤلف مع الزعيم الافريقى « سيلوند يكا » عضو اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى الديمقراطى فى روديسيا الجنوبية . . قابله فى لندن ، وبعد أن تبين وطنيته وصلابته لجأ إلى سلاح الصليبية :

الصحفى الأمريكى : هناك تقارير منتظمة تؤكد أن المسيحية تنحسر عن أفريقيا . . هل هذا صحيح ؟

الزعيم الافريقى : صحيح الكنيسة لم تلعب دورا سليما فى الشئون الافريقية . . لقد وقفت ضدنا إلى جانب هؤلاء الذين استعبدونا . . إنها اليوم تقف على قدمها الأخيرة فى أفريقيا . .

الصحفى الأمريكى : هل أنت مسيحى ؟

الزعيم الأفريقى : نعم . . أنا كاثوليكى . . تعلمت فى كلية « ماريان هل » فى ناتال بجنوب أفريقيا . . وأنا طبعا لم أنضم للكنيسة لدوافع

سياسية بل عن اعتقاد روحى .. ورغم ذلك شعرت انها خذلتنى . .الاسلام سينتصر فى افريقيا وبالرغم من انى سأظل كاثوليكيا . . الا أننى لا أستطيع ان أقول مخلصا انى آسف لتطور الأحداث . . رغم كل شىء فان الدين يشكل جانبا حاسما من قيم الانسان .. ومن ثم ان يدفعه إلى الحرية .. وهذا ما فشلت فيه الكنيسة لقد أعطتنا كل شىء ما عدا الحرية ..

لنا تعليق . .

هذا الموقف الذى يشرحه الزعيم الوطنى الأفريقى هو عين ما نقصده بالتفرقة بين مسيحى الصليبية الأوربية ، وبين نصرانى الشرق . . فهو كاثوليكى .. ولكنه يرتبط وطنيا بالاسلام .. لأن أنتمائه إلى كاثوليكية أوروبا يجعله عميلا لاستعمارها .. عقبة فى طريق تحرر أفريقيا.. هذا التحرر الذى يرتبط بالإسلام ..

كذلك الكنيسة الكاثوليكية التى يمثلها المبشرون ، أعطت شعوب المستعمرات كما يقول الزعيم الافريقى ، كل شىء الا الحرية .. لأنها هناك لسلب هذه الحرية ..

وهكذا نرى أن الغرب لم يفرق فى استعباده للشرق بين النصرانى والمسلم ، الا لضرورات تمزيق الجبهة الوطنية ، ولكنه ابدا لم يعتبر مسيحى الشرق جزء منه .. ونفس الموقف يجب أن يتخذه واتخذه الوطنيون فى الشرق الذين أعتبروا أنفسهم جزءا من الوجود الاسلامى الوطنى [1] ..

---

(١) روى لى الأستاذ اسطفان باسيلى المحامى المصرى المعروف تفسير تسمية «دير السلطان» بهذا الإسم . . انه نسبة للسلطان صلاح الدين الذى رده إلى أقباط مصر بعد ان انتزعه منهم الصليبيون فسموه باسم السلطان المسلم . .

نعود إلى شهادة لويس لوماكس :

« فى القاهرة صدر قانون يمنع الجامعة الأمريكية والارساليات الأمريكية من تدريس الدين ، وكان على الارساليات الامريكية أن تختار بين ترك التبشير بالمسيحية أو العودة لبلادها .. » « والسلام الجمهورى فى مصر يقول الله هو درعى » « انى كمسيحى أمريكى صدمت بما رأيت .. » وعندما يركب الاتوبيس يسمع مصرية تحتج على الزحام فترد عليها أخرى « الطريق إلى مكة سيكون أشد زحاما » وهو يكتب الجملة بألفاظها العربية ، ويعلق على قول المرأة المزعوم : « إذا تحقق حلم ناصر عن العالم الاسلامى .. فسيزدحم حقا الطريق إلى مكة »

وبالطبع . . نحن لا نتحدث عن مكة حتى فى الاتوبيسات . . ولكن مادام الهدف هو حشد الغرب فى معسكرات ريتشارد قلب الاسد والقديس لويس . . فلا بد أن يزعم الكاتب ان معسكرات صلاح الدين قد نصبت فى القاهرة

والآن شهادة المانى ، هو « هنريش كاستر » كتبها فى مجلة « دى بوليتشيا مينونج » عدد يناير ١٩٦٣ ، تحت عنوان الاسلام السياسى :. يقول الكاتب الالمانى .. ان الدور الذى يلعبه الاسلام فى الاحداث الجارية بالشرق الاوسط لم يتضح بعد فى أوروبا .. ويمكننا أن نقرر ان التفكير الدينى يحدد الكثير مما يجرى فى هذه المنطقة . . وان خلف العديد من المشاكل التى نراها فى آسيا وافريقيا تكمن العقيدة المحمدية ..

وقد لا يرضى عن هذا التحليل الغربيون (يقول الكاتب) الذين نبذوا منذ زمن بعيد التفسير الدينى للاحداث ولكن هذه هى الحقيقة . .

ثم يشرح تاريخ القومية العربية فيقول « لقد قدمت اوروبا للشعوب

الاسلامية فى القرن التاسع عشرفكرة القومية العصرية ، وفى هذه الفترة كانت الشعوب الاسلامية بدون استثناء تقريبا . . اما تحت قبضتها او تحت تأثير نفوذها السياسي على الاقل . .

وفى القرن العشرين استغلت هذه الفكرة بنجاح سريع ضد أوربا نفسها ، باعثة فى الأذهان ذكريات الانتصارات الإسلامية .. بل وتبعث حتى ذكريات الحروب الصليبية» .. ثم يستشهد بخطبة الرئيس عن صلاح الدين فى بور سعيد ..

ثم يقول : «وعند ما وجهت القوميه العربية مجهوداتها قبل ٥٠ سنة ضد العثمانية ، لم تؤكد جانبها الدينى .. وفى البداية .. لعبت الاجزاء غير المسلمة وخاصة فى لبنان دورا حاسما .. وفى مصر كانت الحالة مختلفة تماما .. لأن القضية الرئيسية فى مصر كانت خلع الحماية البريطانية .. لذلك كانت حركتها القومية منذ البدايه «محمديه» .. وهى حتى الآن لم تتغير .. »

ومنذ بداية حركة القومية العربية .. لم تتوقف الخلافات حول ماذا كان من الضرورى اكتسابها طابعا إسلاميا .. أو اقتصارها على الجانب العربى .. ولا زال الخلاف قائما . . وإذا كان من الممكن أن تجتذب القومية العربية اللادينية عددا من المتحضرين . . فإن الكتل العريضة لا تجتذبها مثل هذه المفاهيم .. فالعروبة عندها لا تنفصل عن الإسلام »

« وهكذا يرى فريق أن الوحدة العربية جزء من الحركة المناصرة للاسلام .. بينما يرى الآخرون أن الإسلام ليس شرطا ضروريا لتحقيق أهداف الوحدة العربية»

« وفى الحقيقة أن حدود القومية العربية لا تلتقى فحسب مع الاسلام ، ولكنها محاطة أيضا بدائرة كاملة من الحركة الاسلاميه »

« ومن السهل أن نرى تيارا ليبراليا ولكنه بالحقيقة سيكون محمديا »

«قد يفضل البعض التقليل من أهمية التصريحات التى تعطى للشعب .. ولكن حتى المتطرفين فى تحيزهم للتجديد من العرب .. لا يمكنهم تجاهل الحاح الجماهير فى طلب دولة إسلامية »

« وربما كان من الخطأ أن نخلط بين الإسلام والقومية العربية ولكن لايقل خطأ عن ذلك أن نحاول التغاضى عن العلاقة الوثيقة بين الإثنين ..

« ان الاسلام لم يصبح مجرد دين بل عنصرا سياسيا »

* * *

أوربا اذن .. أو بمعنى أشمل الحضارة الغربية ، لا زالت عند صليبيتها .. وقد ازدادت حدة هذه الصليبية فى السنوات الأخيرة مع خطر زوال أمبراطوريتها فى أفريقيا . . بيت المقدس الجديد .. وضمان رفاهية الغرب وتفوقه .. وأوربا تدرك أن المنافس الحقيقى لها ، والقادر على تصفية نفوذها هو العربى .. المسلم .. والذى يعد المصرى أكبر اخوته ..

وفى مواجهة هذه الصليبية .. كان لابد أن ندرك وجودنا الحقيقى .. مصريون .. عرب .. مسلمون ..

ذلك هو وجودنا .. ومكونات شخصيتنا .. وكما أن الشجرة تمتد بافرعها مطاولة السماء بقدر ما تضرب بجذورها فى الأرض .. كذلك نحن بقدر ما نعتز بتاريخنا .. باسلامنا .. بقدر ما نكون جديرين بمستقبل أشرف .. بعيدا عن محاولات اليائسين للعودة إلى الماضى .. أو التنكر للتقدم الحضارى ..

ومن هذه النظرة يمكننا الحكم على اولئك الذين حاولوا ويحاولون القاء التراب على وجه ماضينا .. إقتلاعنا من جذورنا .. تحقيرنا ، باحتقار ماضينا ، أو خلق تناقض لا أساس له بين حقائق وجودنا الثلاث .. فى

محاولة لترجيح إحداها .. بهدف هدمها جميعا ..
وقد تعرضنا خلال المد الثورى الذى أثارته ثورة ٢٣ يوليو وظلت ترعاه وتدفعه بانتصاراتها ، تعرضنا لحملة تخريب واعية ، كانت تهدف إلى تشويه عروبتنا ، وبتر هذه العروبة عن الاسلام .. وتشويه الاسلام ، واثارتنا لحرب ضد التراث وضد الدين .. حرب لا مبرر لها ولا تخدم إلا اعداء عروبتنا .. أعداء إسلامنا .. المتآمرين على وجودنا ..

ومن مؤامراتهم الفصل بين مصريتنا وعروبتنا .. فالبعض يهاجمنا نحن المصريين .. لأننا لسنا عربا .. بل لنا تاريخ يمتد إلى ما قبل الاسلام .. متخذين من التاريخ الفرعونى والقبطى نقيصة يطعنون بها عروبتنا ..

وعلى الجانب الأخر شركاء لهم فى الهدف ، ولكن ثيابهم فرعونية وأصواتهم تدق بالحماس والطرب لمصر الفرعونية . . مصر القبطية .. مصر التى هى أعظم من العرب والعروبة والإسلام . !

والشاتم لنا .. والمادح فينا .. يلتقيان عند نقطة واحدة ، هى عزلنا عن العرب .. والمرء لايحتاج إلى دراسة التاريخ وعلوم الاجتماع ليدرك أن لاعروبة بغير مصر .. وإن وجود مصر الحقيقى فى عروبتها وإسلامها ..

والفريق الأول يهاجم ثورتنا لأنها تسعى إلى فرض سيطرة مصرية ويتحدث عن رمسيس .. بينما الفريق الثانى يغرق ثورتنا هذه فى «المدح» ويقسم ليل نهار .. أنها هى التى ردت للمصريين جنسيتهم العربية ..

والفريقان يريدان الوقيعة بين الثورة والشعب المصرى تارة بالأسف على الشعب المصرى ، لما تقوده إليه العروبة .. وتارة بالمن عليه بماتفضلت به عليه العروبة !

ولا حاجة للقول بان الشعب المصرى العربى لم يتخل أبدا عن عروبته ولم يقف مرة واحدة بمعزل عن قضايا العرب وتمنى أن يأتوا بموقعة واحدة خاضها العرب . وكانت مصر بمعزل عنهم . أو لم تكن قلب الأحداث [1]

(١) الا النضال تحت زعامة لورنس المباحثى الانجليزى . . فالحق اننا قابلناه ببرود تام . . وان تكن قطمان من جندنا قد ساقها الحكم الانجليزى للعمل فى هذه التى يسمونها الثورة العربية .

نماذج

وما أحسبنى هنا بقادر على أن أستعرض كل نماذج الصليبية فى اجهزة الإعلام عند الغرب ، أو حتى فى استقصاء التأثر بهذه الروح فى الفكر العربى فذلك جهد ينوء به الفرد . . ويعجز مثلى . . بل حسبى أن أتقدم ببعض النماذج لعلها تكون بداية دراسة شاملة .

وسنبدأ هنا بمثل للتقدمية الزائفة التى تقود صاحبها إلى هاوية الرجعية بل إلى التستر على الاستعمار وتبرئته من أجل حرب مزيفة ضد العادات الدينية .

الدكتور الطبيب « مصطفى محمود » كتب تحت عنوان « شمعة تحترق » مقالا تحدث فيه عن دور الصدفة فى حياة الناس وعلاقتها بالتخطيط وأورد مثالا للصدفة ، حكاية الكوليرا التى أصابت مصر قبل حادثة القرين فزعم انها جاءت مع حاج طيب القلب جاء يحمل زجاجة من ماء زمزم . تخاطفها أهل قريته فلم يجد حلا إلا أن يلقى بماء الزجاجة فى بئر القرية . وتصادف أن كانت الزجاجة ملوثه بميكروب الكوليرا فمات نتيجة ذلك ثلاثة ملايين مصرى !

والحكاية كما ترى لاتتفق مع الواقع ، ولا مع المنهج العلمى الذى يحاول صاحبنا أن يبشر به . .

وأغلب الظن أنه يتحدث عن وباء الكوليرا الذى وقع فى ١٩٠٢ وهو كوباء القرين ، جاء نتيجة للاحتلال البريطانى : كوليرا القرين جاءت فى بعض الأطعمة الملوثة التى وصلت إلى الأهالى فى معسكرات الجيش البريطانى سواء عن قصد ، كما يقول البعض ، لتخريب المد الوطنى عقب اثارة القضية المصرية فى مجلس الأمن ، أو كنتيجة محتومة لوضع قوات أجنبية لا تخضع لرقابة صحية

ونفس الشيء بالنسبة لكوليرا مطلع القرن العشرين بصرف النظر عن صحة الرقم الذى يورده الدكتور للتهويش ، والذى لا يتناسب مع تعداد مصر فى ذلك الحين

جاء الوباء مع الجنود الهنود العاملين فى قوات الإحتلال واخترعت الدعاية الانجليزيه حكاية الزجاجة والبئر لتخفى جريمتها .. وإذا كانت قد انطلت على الناس وقتها .. فما أظن أننا نقبلها اليوم .. ولقد رجعت لبعض المختصين ويمكن القول لو أن ميكروب الكوليرا كان فى ماء زمزم ، لأصيب به الحاج نفسه ، ولانتقل الوباء بواسطته هو وعشرات الألوف من زملائه الحجاج لا لمصر وحدها ، بل للعالم الإسلامى بأجمعه . . ولما كانت هناك حاجة بالميكروب لكى يتجشم عناء الرحلة من الزجاجة إلى البئر .. عبر الصدفة .. وكل هؤلاء الحجاج الطيبين يحملونه فى أحشائهم .

● ميكروب الكوليرا . كما يعرف أى طبيب ، حساس جدا ولا يمكنه العيش فى نسبة الملوحة المرتفعة فى مياه زمزم .

● وهو — كما يعرف أى دكتور — يحتاج لرعاية خاصة ، وثبات فى درجة الحرارة لانظن أن الحاج قد كفلها له فى هذه الزجاجة .

● منذ أن سافر أول حاج لبيت الله الحرام من ١٤ قرنا والناس

يحملون ماء زمزم ويعبون منه ، ولم تسجل حالة وباء كوليرا بين الحجاج في سنه من السنين . .

هذه القضايا كلا غفل عنها الطبيب ، لكى يغيظ المسلمين ، ويبدو أمام الناس بمنظر التقدمى الذى لايخاف ولا يأبه بمشاعر الرجعيين المتدينين . .

والقارىء السطحى سيصدق الدكتور ، وسينفر من المسلمين الجهلة ، الذين يحملون الكوليرا من ماء زمزم ، وسينسى جريمة الاستعمار بل ويتسرب إلى نفسه احترام هذا المستعمر المتمدين الذى لا يشرب من زمزم ، ولا يحج لآبار الكوليرا .

والمسلمون الأتقياء ، وهم ملايين ، سينفرون من العلم الذى يمثله الطبيب . . ومن الصحافة التى تنشر له وهكذا تبقى هوة بين العلم والشعب.
هذا مثال لما يحدثه الغزو الفكرى . .

.. وإليكم آخر

ظهر منذ أعوام .. ولغير ماسبب معروف ، ناقد .. أغلب الظن أنه مصرى .. اسمه غالى شكرى ، ماركسى التفكير [1] .. عنصرى متعصب، يحمل حقدا دفينا على تراثنا .. ويتعلق بأقدام الفكر الغربى ..

الناقد المذكور ، بمناسبة وبدون مناسبة ، يطعن فى وجودنا الإسلامى مدعيا التقدمية .. ولو استطاع أن يمحو الاسلام من تاريخنا لفعل .. فهو ينكر أن يكون له أثر فى ثقافتنا .. بل لايعتبره موجودا فى التراث الإنسانى !!

فعندما يتحدث عن تاريخ التراجيديا فى مقال بمجلة الكاتب عدد « يوليو » .. مقال ينحنى فيه ثلاث مرات للأب الراهب جوميه .. نراه يستشهد بقول جان فرابيه .. « الضمير البشرى موطن لنزاع لايفتأ يتجدد بين الإنسان القديم الذى يرزح تحت نير الخطيئة الأولى والإنسان الجديد الذى خلقه التعميد خلقا آخر » ..

والمسلمون لايرزحون تحت نير خطيئة أولى .. لأنهم يؤمنون بأن الله غفور رحيم .. وأن كل إنسان مسئول عن نفسه ، وعن خطاياه .. كذلك لايعتقد المسلمون بأن التعميد يخلق الإنسان من جديد .. بل

---

(١) هو لايخفى ماركسيته ، بل يقول عن الشيوعية انها « امتداد اكثر ازدهارا للاراء التقدمية » الكاتب عدد يوليو ١٩٦٣ .

تخلقه أفعاله وإرادته الحرة . .

ولكن الناقد شكرى غالى ، شأن أساتذته فى مدارس التبشير التى تعلم بها ، لايسلك الإسلام فى عداد التراث الإنسانى ، ولا يعتبر المسلمين عنصرا لابد من إضافته فىوضع قوانين عامة للجنس البشرى . .

بل حتى فى تحليل مصر . . نراه يؤكد « تم تفاعل حضارى بين الفكرتين المسيحية والمصرية ماتزال لهاروا سبافىالنفس المصرية عند المسيحى والمسلم على السواء .. »

نحن نعتز بتراثنا كله .. وننحنى لاللراهب جوميه . فما اعتدنا الإنحناء لرهبان بل ننحنى لتاريخنا الفرعونى .. والقبطى .. ولبطولة آبائنا رهبان الصحراء ولكن بمفهوم يختلف تماما عن مفهوم غالى شكرى وآبانوفر الحديث ولأننا نعتز بتاريخنا كله لا يمكن أن نتنكر للاسلام ولا يمكن أن نقبل حذفه هكذا من مكونات النفس المصرية ..

ولكن هل حذفه شكرى غالى . ؟ نعم يقول فى نهاية مقاله « ومن مصر القبطية إلى مصر العربية (ولا أقول الإسلامية ، لأن الحضارة العربية كانت أعمق من أن يكون الإسلام عنصرها الوحيد ، كما أن التجربة العربية مع الإسلام تختلف تماما عن تجارب الأمم الأخرى مع نفس الدين) مصر الفرعونية . مصر القبطية . ومصر العربية الحديثة . . هى الحلقات الثلاث الرئيسية فى تاريخنا القومى . ومن خلال الإمتزاج الحضارى العميق بين هذه الحضارات الثلاث تكونت ملامح النفس المصرية . »[1]

---

(١) ص ٥٤ عدد سبتمبر ١٩٦٣ مجلة الكاتب .

وداعا ياأربعة عشر قرنا . . وداعا ياموطن الأزهر .. وقلعة الإسلام وعاصمة الفاطميين .. وقاهرة الصليبين .. آسرة لويس التاسع ..

وداعا . . قد صدر قرار المحو ممن لايرد قضائه .. الناقد .. السند شكرى غالى .. مصر الفرعونية التى اندثرت من عشرين قرنا .. تعيش فى دمى .. ومصر القبطية التى دامت سبعة قرون تشكل مصيرى .. أما أذان الإسلام يتردد خمس مرات من نصف ألف مأذنة بالقاهرة . . . فلم تتأثر به .. ولا يجوز نسبته لمصر[1] . !

الناقد المذكور ، أخرج كتابا عن « أزمة الجنس فى القصة العربية » لنا رأى فى بعض ماجاء بهذا الكتاب :

المؤلف ساخط كل السخط على العلاقة الجنسية فى الإسلام .. على تعدد الزوجات ، على سهولة الطلاق .. جاعلا من هذه القضايا أس الفساد والبلاء وأم الخطايا جميعا .. ولايخجل من أن يقول :

« التركة التى ورثها مجتمعنا على مدى الأجيال .. المواخير والدعارة فى عصر الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل والعصر البويهى ومصر الفاطمية[2] » .

ماذا بقى لك أيها العربى من تاريخك .. لتفخر به .. وهذه أمجد عصورك بل أشرق عصور البشرية قد تحولت بفضل غالى ومن علموه .. إلى مواخير ودعاره[3] .

---

(١) ترجيح العروبة فى كلامه على الإسلام ليس حبا فى معاوية ولكن بغضا فى على كما سنرى .

(٢) ص ٦٨ — ٦٩ .

(٣) الغريب أنه يشهد لنا بميراث المواخير والدعارة وينكر علينا التأثر بالإسلام

ويقرر فى ثقة العالم : « سهولة الطلاق ، والفساد الذى يحيق بالرجل والمرأة من جرائه » [1]

أرجو أن يكون قد سمع بمنزل الدكتوروارد ومابه من مرايا . والفساد الذى حاق فيه بالمرأة والرجل . . رغم صعوبة الطلاق . . بل ومن جراء هذه الصعوبة ، كما يقرر أى باحث اجتماعى منصف ..

ويعود غالى شكرى فيقرر « الطلاق وتعدد الزوجات وما يتبعهما من علاقات كالزنا والبغاء » [2]

بديهية صليبية ينطلق منها سيادة الناقد .. الطلاق وتعدد الزوجات . يعنى مجتمع بغايا وزناة !! هكذا نسمح لناقد أن يسم شرف أمتنا ..

لا أدرى ولا أظن أن الزنا والبغاء فى القاهرة يفوق مثيله فى روما حيث الدين الكاثوليكى يحرم تعدد الزوجات ، ويصعب الطلاق بل يحرمه . ؟ !

لا أريد أن أجرى وراء الإحصائيات .. كل ما يعنينى هنا ، أن ناقدا يزعم التحررالتقدمية ، يسود صحائف يطبعها فى بيروت .. لطعن النظام الإجتماعى فى الإسلام ، ووصمه بالفسوق والفحش ، مرددا الحملة الصليبية التافهة حول نظام الزواج فى الإسلام ..

ولا أدرى لماذا لم يكلف نفسه ، عناء دراسة العلاقة الجنسية فى ظل الإسلام ليكتشف أنها قد وصلت إلى قمة من السمو والإنسانية

---

(١) ص ٦٩ .
(٢) ص ٦٩ .

القائمة على التكافؤ والاختيار الحر .. وأن الدول المتمدينة التى فتـه بريقها ـان كان حسن النية ـ تسعى جاهدة للوصول إلى علاقات زوجية كتلك التى أقامها الإسلام . . ولا أدل على ذلك من رضوخ حتى الكاثوليك لحق الطلاق . .

الأصل فى الإسلام ـ كما قلنا ـ أن الإنسان حر الارادة ، وأنه يملك دائما أن يخطىء وأن يصحح خطأه .. فهو سيد مصيره .. وقرارات الانسان كلها انسانية .. وعلاقاته كلها انسانية .. تستمد قوتها من طابعها الانسانى وتنهار بارادة الانسان .. ليس فى ديننا شىء يعقد على الأرض فلا ينفصم إلا فى السماء .. وليس فى شريعتنا علاقة بين اثنين تسجل فى السماء .. حتى يستحيل علينا الخلاص منها !

نحن نتزوج بارادتنا ، وبتعاهدنا .. لا برباط يعقده كاهن .. وعندما يستحيل علينا العيش .. ننفصل ..

نعم ! .. نعيش معا بإرادة حرة .. ولأننا نريد ذلك .. وباختيار حر لا تكفيرا أو عقوبة عن قرار خاطىء اتخذناه .. ونبقى أبد العمر نرزح تحته .. لا .. نحن دائما نملك أن نبدأ من جديد ..

ولست أدرى كيف توصل الناقد إلى أن يرمى أمهات المسلمين بالفاحشة من فرضية أن سهولة الطلاق يتبعها فساد وبغاء . ؟ !

الأعقل .. أن البغاء يتبع علاقة غير متكافئة بين رجل وامرأة يرزحان تحت قيد زوجى لا سبيل إلى الفكاك منه .. لا رجل وامرأة يملكان الانفصال .. بل كيف يمكن أن تنشأ الحاجة إلى الزنا أصلا فى مجتمع ، لا حائل فيه بين أى رجل وأى امرأة ، لكى يقيما علاقة جنسية شرعية فيما بينهما ..

بالطبع هناك حالات زنا فردية .. وعابره .. تنشأ بين أفراد لا يفكرون فى

العلاقه المستمرة .. ومثل هذه الحالات لادخل لها بنظام الطلاق إباحة وتحريما[1]

---

(١) فى دراسة نقديه للدكتور لويس عوض عن مسرحية برنارد البا يغمز بقوله أن الرواية تدور فى المجتمع « الاندلسى » حيث يرجم الزانى . تفسيرا للحياة المتوحشة التى تحياها عائلة برنارد البا . . ولاشك أن الدكتور لويس يعلم أن المجتمع الاندلسى كان أكثر تحررا وإنسانية من أسبانيا الكاثوليكية . . وأن رجم الزناة لم يبتدعه الإسلام بل جاء فى التوراة والإنجيل . . وبدلا من التعريض بالحضارة الاندلسية ، والجرى وراء السخف القائل بأن تخلف أسبانيا والبرتغال هو ثمرة الحكم العربى . . بدلا من ذلك أليس الأكثر علمية . . أن يدرس آثار الحكم العربى التى جعلت أسبانيا والبرتغال أول الدول الأوروبية دخولا فى عصر النهضة حتى امتصت دماء الحضارة منها محاكم التفتيش . . بل لماذا لا نتأمل كلمات « كلود فارير » عضو الاكاديمية الفرنسية يقول : فى عام ٧٣٢ ميلادية ألمت بالإنسانية كارثة ، قد تكون أكثر الكوارث شؤما فى العصر الوسيط كله . وقد غرق فيها العالم الغربى ، طوال سبعة قرون أو ثمانية ، فى مهاوى بربرية كان عصر النهضة قد بدأ يبددها والتى قواها عصر الإصلاح من جديد . . هذه الكارثة التى أكره حتى ذكرها ؛ هى الانتصار المقيت الذى أحرزه قرب بواتيه ، متوحشوا الماركاس من محاربى الفرانك بقيادة الكارولنجى شارل مارتل ، على الكتائب العربية والبربرية التى لم يعرف الخليفة عبد الرحمن أن يحشدها بما يكفى ، فتراجعت وفشلت ، لقد تقهقرت المدنية فى هذا اليوم المشؤوم ثمانمائة عام . وذلك أنه يكفى أن يكون الانسان قد شاهد حدائق الاندلس ، أوالبقايا المدهشة لعواصم السحر والحلم اشبيليه غرناطه ، قرطبه ، طليطله ، لكى يستشف ، فى دوار معجز ما كانت قد آلت إليه فرنسا ، وقد خلصها الاسلام الحاذق ، الفيلسوف ، المسالم ، السمح ــ الاسلام هو هذا كله ــ من أهوال لاتسمى ، اجتاحت على الأثر بلاد الغال القديمة ، التى خضعت بادىء الأمر للعصابات الاوسترازية الوحشية ثم جزئت ومزقت واغرقت فى الدماء والدموع ، وأفرغتها من الرجال الحروب الصليبية ، واتخمت بالجثث من جراء حروب كثيرة أهلية وأجنبيه ، فى حين كان العالم الإسلامى ، من الوادى الكبير إلى الآندوس ينمو وينتصر بسلام ، فى ظل الأمويين والعباسيين والسلاجقة (لا مواخير ولادعارة ؟ !) .

=

لو كان الناقد ثوريا . . أو نزيها . . أو متحررا يعتز بنسبته لهذه الأمة . . لاكتشف فى العلاقات الشخصية فى الاسلام ما اكتشفه ثورى أعتذر له أننى أحضره كشاهد فى معرض الرد على مانحن فيه . .
ذلك الشاهد الثورى .. هو عمار أوزيجان ، وإليكم كلماته :

« إن هذه الفوضى الأخلاقية المسببة للجريمة غير واردة عندنا ، ليس لأن ابليس عاجز عن اغوائنا فى حين ينجح فى جر الملائكة إلى الهاوية .. كلا .. وإنما لأن تأثير محيطنا الإجتماعى يساعدنا على مقاومة أنفسنا وغرائزنا السفلى .. وأيضا بسبب الزيجات المبكرة والمرتفعة النسبة .. وأخيرا بفضل البساطة التى يتم فيها الزواج والطلاق سواء بسواء .. »

كيف وصل أوزيجان .. وغالى من نفس المقدمة إلى نتيجتين متعارضتين تماما .؟ !

لأن الأول أنار بصيرته وعى الثوار وشرف الأحرار .. وربته ثورية الشعب .. والثانى أعماه التعصب والتبعية .. وربته مدارس التبشير .. الثانى ماركسى أنكر ماركسيته ليخرج من السجن .. وليس له يوم يفخر به ضد الإستعمار

= سأسأل فيما بعد هؤلاء الفرنسيين (يقول الكاتب الفرنسى) ماذا يفكرون فى انتصارنا عام ٧٣٢ على المسلمين ؟ وعما إذا كانوا لايحكمون معى أن هذا الإنكسار الذى أصاب شعبا متمدنا على يد شعب بربرى كان ، بالنسبة للانسانية جمعاء مصيبة كبرى ؟ اهـ .

والمصيبة الأكبر أن يأتى كتابنا ليفركوا أيديهم شماتة فى الهزيمة الإسلامية وانى اقتبس هنا لعمار أوزيجان . . استشهاده بالمثل الجزائرى « مابينكر أصله غير البغل » . .

والأول زعيم ماركسى ، تخطى الماركسية إلى آفاق ثورية جديدة وخرج من السجن إلى الوزارة بعد أن حمل السلاح ورد مع رفاقه إلى ١٢ مليون حريتهم وعروبتهم بفضل إسلامهم الذى أصروا عليه

نعود لغالى شكرى

الغريب ـ ولا غرابه ـ أن هذا الكاتب الذى يضيق بزواج الرجل بأربعة ، وسهولة الطلاق ، يمتدح فى أول دراسته المشاعية الجنسية ويربط فى سخف بين الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والزواج الجماعى .. ويقول: «تلا ذلك مرحلة الزواج الجماعى فى ظل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج (كأن المرأة ضمن وسائل الانتاج) فلم تبرز العلاقة الجنسية كمشكلة بين الأفراد (بالطبع مادام الجميع يتسافدون كالحمير) وإن صلحت للتعبير عن حاجتهم المشتركة إلى الخصب والنماء فى بقية أشكال الحياة الانسانية ومقوماتها[1]

ثم ينتقل إلى الزواج الحالى « فما أن دخل المجتمع الانسانى فى مرحلة جديدة فى ظل الملكية الفردية لوسائل الانتاج .. »

«ومن الواضح أن المرأة أصبحت فجأه (لا أدرى كيف يصبح ذلك فجأه .. فالذى يحدث فجأه هو انقلاب سياره .. أو تقيأ فكر فاسد .. لا تطورا إجتماعياً يستغرق آلاف السنين) فى وضع مهين ، لأن المساواة الاقتصادية بينهما تخضع لاعتبارات لم تكن موجودة من قبل .. »

ولا أدرى هل بدأت المرأة تحبل وتلد بعد ظهور الملكية الفردية فقط.. وفى ظل الشيوعية البدائية كان الرجل والمرأة يلدان على قدم المساواة ؟ ! ألم تكن حاجة المرأة إلى من يطعمها ويحميها ستة أسابيع على الأقل ـ

---

(١) ص ٢٤

لضرورات بيولوجية قبل أى نظام اجتماعى .. تحتم وجود فارق بين دور المرأة والرجل فى الإنتاج . ؟ !

يقول الناقد « بل إن هذه العلاقة خرجت بالتدريج أيضا من حدودها الطبيعية التى كانت تعتمد على مجرد الرغبة والتوافق بين اثنين »

هل الزواج الجماعى .. أو زواج القطيع يقوم على الرغبة والتوافق بين اثنين ؟ هل يمكن وصف العلاقة الجنسية بين الماعز .. بأنها رغبة وتوافق بين جدى بعينه وعنزه بعينها ؟ !

ولماذا يغضب هذا الآسف على الزواج الجماعى .. من تعدد الزوجات وسهوله الطلاق ؟ إلا لغرض فى نفس يعقوب ؟ !

وغالى شكرى ثائر على كل مايمت للاسلام بصلة .. فى دراسة لأدب « عبدالحميد جوده السحار» يتهمه بأنه من الفريق الذى يخشى الثورة «لانه يخاف على مافى جعبته من قيم قديمة من المثاليات والأديان والسماويات » وإلى هذا الفريق يقول غالى شكرى : « تنتمى أول مراحل القصاص عبد الحميد جوده السحار التى ظلت كثيرا من رواسبها عالقة بانتاجه الأدبى حتى أحدث مراحله .. ويكفى أن نلقى نظرة خاطفة على قائمة مؤلفاته الدينية لكى تتضح اهتمامات المؤلف وندرك جوهر ما يؤلف »

ثم يستعرض « جرائم » للمؤلف أو دليل تخلفه الذى يبيح له الحديث عنه بهذه اللهجة بمجرد النظرة الخاطفه .. من هذه المؤلفات .. ـ يسجل غالى شكرى ـ بلال مؤذن الرسول ، سعد بن أبى وقاص ، أبناء أبى بكر الصديق ، أهل البيت ، قصص من الكتب المقدسه ، قصص الأنبياء ، ١٨ قصة بالإشتراك مع سيد قطب ، قصص السيرة النبوية ٢٤ قصة .. قصص

الخلفاء الراشدين ٢٠ قصة .. الخ .. الخ[1] .. » ويكمل « ولست أريد أن أحصى عدد الآيات القرآنية التى تخللت الاقصوصه »[2]

يحاول أن يقلد سلامة موسى عندما انتقد عبقريات العقاد ، ناسيا أن كتابات سلامة موسى ، قد انتهت بوفاته ، وأن ما بقى منها ، إن كان يجذب اهتماماً ، فكما يهتم الباحثون برسومات الأطفال ، ندهش من قدرتهم على التعبير ، ولكننا لا نتخذها أبدا كمقياس لفنون الكبار أو نموذج يحتذيه الدارسون ..

ناسيا الفارق الضخم بين يومنا ..والأمس الذى عاشه سلامة موسى ..

كان المجتمع المصرى أو المجتمع العربى بصفة عامة تحكمه رجعية تستغل الدين .. وكان هجوم سلامة موسى على الدين ، يغتفر فى ظل الحقد العام على الرجعية . . كنا مشغولين فى حربنا ضد شيوخ الأزهر الذين يخدمون الملك . . عن أن نتنبه لطعنات سلامة موسى التى توغل فى اللحم إلى أبعد من قشرة رجال الدين المتهرئة . كنا مشغولين لدرجة اننا لم نتوقف لنرد سلامة موسى عن هجومه وطعنه فى نحر أمتنا . . عبد الرحمن الجبرتى ، الذى عيره سلامة موسى بأنه شيخ أزهرى . . كأنها سبة . . لأن الجبرتى هاجم المتعاونين مع الاحتلال فى جيش الخائن الجنرال يعقوب . بينما كان الجبرتى أرحب صدراً منه فلم يتردد فى نقد علماء الإسلام الذين تخاذلوا أمام المحتل ..

---

(١) ص ٢١٠

(٢) ص ٢١١

كنا مشغولين بحربنا ضد الأزهر الرجعى والإقطاع المستغل للدين عن أن نلتفت لغمزات سلامة موسى ، والتى لا يمكن تفسيرها أو تبريرها .. ولو كانت تشنجات عصبية من متعصب لأمكن فهمها .. أما أن تصدر عن كاتب كان يفاخر بأنه لادينى .. وهو كذلك فعلا .. فأمر يحتاج لتفسير .. ويستحيل على التبرير ..

ثم أن يأتى آخر بعد أن تحررت بلادنا ، بعد أن أصبح لدينا رجال دين أحرار .. بل بعد أن أصبحت معركة تحرير أفريقيا .. كما يشهد كتاب الغرب أنفسهم .. هى معركة الإسلام ..

وفى وقت تبذل الدولة وحكومة الثورة ، الأموال لطبع المصحف وتسجيله ؛ وتعمل ليل نهار لإصلاح الأزهر حتى يضطلع بمسئولياته الكبرى .. وفى الوقت الذى يحشد فيه الغرب كل أسلحته ، ودعايته لمحاربة الإسلام فى أفريقيا .. باعتباره الخطر المباشر على نفوذه الإستعمارى .. ولا يجد الغرب إلا الأكاذيب العفنة يرددها عن حكايه تعدد الزوجات والطلاق والرق .. ويروج بيننا فى خبث ، دعوة لتقدمية زائفة ، تدعونا إلى أن ننفض عنا ديننا .. لأنه من القيم القديمة ! !

فى مثل هذه الظروف .. لا يكون ثوريا من يهاجم الإسلام ، ولا تقدميا من يعرض به .. بل إنى أتهمه بخدمة الأهداف الإستعمارية فى الوطن العربى .. وأفريقيا .. لا فرق بين جهوده وجهود المبشرين الإستعماريين الذين يتآمرون على وحدة السودان ، والذين يثيرون المتاعب للحكم الوطنى فى أفريقيا السوداء .

وليس من المعقول ولا من المقبول ، أن نسكت على كاتب يحاول أن يسخر من فنان مسلم لأنه يكتب عن « بلال مؤذن الرسول »

لو كان الناقد ثورياً ، تقدمياً ، تعنيه قضيه تحرير أفريقيا ، ويقف إلى جانب شعوبها فى معركة تقرير المصير .. لبذل سنوات من عمره فى دراسة هـذه الشخصية الفذة ، . بلال .. الأفريقى .. الأسود .. الذى آمن بالإسلام دين المساواة ، فاستمد منه قوة قهرت أسياده ، واستطاع أن يصل تحت ظلال الإسلام إلى الصف الأول .. وكان له الفضل والسبق على سادة قريش جميعاً [1] ...

لو أنه بذل جهداً فى تعريف الإفريقيين ببلال مؤذن الرسول .. بدلا من الاستشهاد به للتعريض بالقصاص العربى بل وأن تكون الكتابة عن هذه الشخصية مثارا لحقده ، إلى حد استدعاء الشرطة للقبض على القصاص بتهمة معاداة الثورة أو عدم التجاوب معها .. كأنه هو .. المعجب بحضارة طرازان .. ثورى ؟ !

وأنه لما يشرفنى أن أكتب هذه الكلمات قبل أن أقرأ لعمار أوزيجان ، وصفه المبدع « لموسم سيدى بلال » والذى يحتفل به شعب الجزائر

يقول الثائر الجزائرى : « كان موسم سيدى بلال ، طوافاً سنوياً أخاذاً يقوم به المسلمون السود فى الجزائر .. ومن أجدر بلعب هذا الدور الرمزى من سيدى بلال العبد الإفريقى المعتق ، رفيق النبى ومؤذنه .. » « الناس سواسيه كأسنان المشط لافضل لأبيض على أسود ، ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .. كان الاسم الرمزى لبلال بن رباح يعكس النزوع إلى المساواة عند الشعب الأسود .. وكان يتخذ شهادة على إيمانه ، يذكر

---

(١) أبو بكر سيدنا ، واعتق سيدنا . (عمر بن الخطاب).

العالم الإسلامي كل يوم ، المؤذن الأول الذى كان يمكن لشاعر كايميه سيزيز أن يغنى « العبديه برائحتها الشهية ، برائحة البصل المقلى » مضيفاً إلى ذلك عسل الحرية وعطر الاخوة فى المدينة المنورة .. والواقع أن اسم سيدى بلال مقترن بالآذان .. هذا النداء الرخيم الذى يحرك الروح وهو يصاعد من المآذن معلنا الصلوات الخمس اليومية .. » ثم يورد عمار نص الآذان[1] .

عمار أوزيجان .. ليس من مشايخ الطرق الصوفية ، بل قاهر فرنسا .. وأحد بناة الإشتراكية فى الجزائر .. ومع ذلك أرجو من السيد غالى أن يكلف خاطره ويحصى عدد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى كتاب اوزيجان .. وليثق أنه لا يصل إلى أن يجلس مجلس أصغر التلاميذ فى حضرة اوزيجان من ناحية الثقافة الغربيه ..

لماذا نضحك فى كمناعندما نؤلف عن بلال .. ونركع فى خشوع عندما يؤلف الآخرون عن جان دارك .. لماذا يثيره أن يحصى الآيات القرآنية فى قصة .. ولا يحصى آيات الأنجيل فى خطب وكتابات لينين وستالين مثلا ! .

ويصف أسلوب السحار بالسذاجة قائلا « إن هذه السذاجة كانت تتوارى بين حين وآخر كلما تخلص الكاتب قليلا من عواطفه الدينية تحت ضغط الأحداث ، وإصرار النماذج البشرية على أن تبدو إنسانية حقاً .. » .

كأن العواطف الدينية تحجب الإنسانية ! .

ثم يتولى وعظنا : .

---

(١) الجهاد الأفضل ص ٩١ .

«فلم تعد حضارتنا قاصرة على كتب الدين ، كهدية نقدمها إلى أوروبا لنجذبها من حظيرة الشيطان إلى حقل الإيمان .. إن أوروبا تنفق ملايين الجنيهات على الكتاب المقدس والفلسفات اللاهوتيه ، ومعاهد التعليم الغيبي ، وهى أذن .. ليست بحاجة إلى أنبياء جدد من الشرق .. ولم يعد الشرق نفسه شرقا .. إنه يستطيع الآن أن يضيف إلى الحضارة الإنسانية شيئاً جديداً غير الرسالات السماوية ، شيئاً يرتفع إلى مستوى العصر ، فى النقد العلمى والضميرى معا . . . »[1] .

قد تبدو أنها كلمات عقل مختل يستخلص من مقدمات صحيحة نتائج مغلوطة .. ولكنها منطق رجعى معاد لوجودنا وقوميتنا ..

الناقد معجب بالحضارة الأوروبية ، وهو يشهد أن أوروبا المعاصرة تنفق ملايين الجنيهات فى طبع الكتب المقدسة ومعاهد التعليم الغيبي والفلسفات اللاهوتية .. فلماذا بالله وبالشياطين لا نفعل نحن ؟ ! .. إلا إذا كنا حريصين على عدم اعتراض سبيل اللاهوت الأوربى .. والشوشرة عليه . ؟ ! هل تقر أعيننا لأن أوربا تنفق الملايين على طبع كتابها المقدس ؟ .. لماذا لا ننفق نحن على الدين وعلى كتابنا المقدس كما تفعل أوروبا الذرة .. أوروبا الصواريخ وغزو الفضاء .. لأن أوروبا لم تجد ناقداً مثقفاً واعياً تقدمياً مثل غالى شكرى يردها عن الغى الذى تتردى فيه ... بينما رزئنا نحن وحدنا بهذا الناقد ! .

ومتى كانت حضارتناقاصرةعلى كتب الدين .. ، متى ؟ .. يوم انتشرنا نحمل كلمة القرآن من طنجة إلىبكين .. يوم صدمنا أوروبا الغارقة فى

---

(١) ص ٢٢٩ .

هاوية التخلف وظلمات الجهل .. يومئذلم تقتصر حضارتنا على كتب الدين بل نشرنا كتب العلم ، وخلاصة الفكر الإنسانى .. فلما هوت حضارتنا.. لم نعد نصدر لا دينا ولا دنيا ..

وهل صحيح أن الشرق لم يقدم سوى الرسالات السماوية [1] ، وأن النقد العلمى والضميرى ، الذى يرتفع إلى مستوى العصر لايتأتى الا اذا طرحنا عنا .. الرسالات .. أكان منهاج ابن خلدون إلا ثمرة العقل الإسلامى .. والكندى وابن سينا وابن طفيل وابن رشد كل زهرات الشرق تنكرها بأنفك المزكوم . !

أسمع رد عمار أوزيجان .. « انكار وجود فلسفة انسانية ، ودينية ، هو طمس لكل ماقدمهعرب الأندلسخلال نصف قرن ، هؤلاء الزارعون الذين قدمواالقمح الاسود،الثقافة، الرى ،الطب،الصيدلة،الفلك، الهندسة ، صناعة الحرير ، والصياغة ، والتسامح ، والتعايش السلمى.[2]

إذن .. ليست الرسالات السماوية وحدها هى ما تصدره حضارتنا .. والشرق الذى سيبقى شرقا ، وستخيب كل محاولات الصليبية التى تأمل دائما أن يصبح ليس شرقا .. وإن آمنت هى وبشرت بان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ..

ويظن غالى شكرى ، **أنه قد افترس** عبد الحميد جوده السحار وما يمثله عبد الحميد فيمعن طعنا وتجريحا ..

---

(١) الرسالات السماوية لا ترتفع إلىمستوى العصر!! ربما كان نقدالسيدغالى هو الذى يرتفع ؟ !

(٢) ص ٥٣

« الاقتباس من القرآن يذكرنا أكثر فأكثر أن السحار ظاهرة أدبية ، تمثل رد الفعل العنيف لتطورنا الحضارى ، من جانب القيم القديمة . . كما أنه رد فعل طبيعى لأكوام الأدران الصفراء[1] .

ماذا نقول لمن يسمى قرآننا . . قيم قديمة . . وأدران صفراء ؟ !

أنقول مع العجزة .. حسبنا الله ونعم الوكيل ... الله ينصر دينه .. ؟

.. لو أن رينان هو الذى يقول هذا يسنده جيش احتلال .. وأساطيل أوروبا العظمى تزمجر عند الثغور .. لقبلنا الشهادة دفاعا عن الحق ..

أما اليوم ، وقد كسرت ثورتنا والثورة الجزائرية ، ووجود الرئيس عبد السلام عارف ، العمود الفقرى للاستعمار الصليبى .. فإننا نقول الاقتباس من القرآن ليس رده .. والأدران الصفراء هى ما كتبت وما طبعوا لك فى بيروت .. ولو على ورق أبيض ..

إسمع أوزيجان : تستعجل العقلية العصرية كثيرا فى توديع الأديان كلها توديعا مأتميا ، دون أن تدرك أن الأيدلوجية الإسلامية ليست محتضرة ، بل فى كامل اندفاعها وحركتها » .

« ما أكثر الذين انتقدو الإسلام دون أن يعرفوه .. إنهم يشاركون فى الجهل رينان » .

وعلى ذكر بيروت التى طبعت كتاب غالى ، أقول أن له فى كتابه

---

(١) ص ٢٣٠

هذا .. رأيا جديرا بالتأمل ، عن لبنان .. إن كان منطقيا من مثال هذا الناقد .. فهو حريص على أن يؤكد وجود فارق بين لبنان ومصر ينعكس فى اختلاف أدبهما .. وبين لبنان والأدب العربى كله ، ويتفق فى ذلك مع الدعوات الإقليمية

الفارق الذى يكتشفه الناقد .. فارق دينى .. رغم كل ما سوده فى تتفيه شأن الدين .. فهو يقول : « فلو بحثنا عن السمة الغالبة على الأدب اللبنانى لاكتشفنا أنها ليست تماما هى السمة الغالبة على الأدب المصرى رغم القرابة التاريخية التى تربط المجتمعين » [1]

تأمل حكاية القرابة التاريخية .. ثم إقرأ : « لانعثر على هذا الإحساس المسيحى الحاد بالخطيئة فى غير لبنان ، ولكنه يعتبر من الخصائص المميزة لأدبه » .. [2]

أننا رغم رجعيتنا .. وإيماننا .. نرفض القول بلبنان المسيحى .. ونرفض أيضا قوله : « أمتنا العربية التى ماتزال فى دور التكامل والتكوين »[3] .

وهو هنا ببغاء يردد قول الشيوعيين الفرنسيين عن أمة إكتمل

---

(١) ص ٧٠ لاحظ تناقض ذلك مع مقاله فى مجلة الكاتب التى يؤكد فيها الروح المسيحية فى مصر . . لتعرف أنه لايتبع منهجا . . بل حربا صليبية حسبه أن يطلق فيها فى كل مناسبة قذيفة .

(٢) لو أهتم فى دراسته المغرضة عن أدب احسان عبد القدوس بقراءة قصة لا تطفىء الشمس . لوجد هذا الإحساس المسيحى .

(٣) ص ١٦٤

تكوينها قبل أن يتشكل غالى شكرى وزعماء الحزب الشيوعى الفرنسى ، فى الارحام .

وإذا كان شكرى غالى قد لمس إحساس اللبنانين الحاد بالخطيئة النابع من مسيحيتهم .. إننا نرجوله وهو الناقد المسيحى .. أن يحس بجرم ما ارتكب من خطيئة إذ سود هذه الصفحات ضد تراث أمته .. وإلا فما تراثه إن كان عربيا ؟ !

وأحب قبل أن أنهى حديثى عن غالى شكرى أن أناقش هنا بعض الآراء التى روجها فى مجلة الكاتب عدد سبتمبر .. فى دراسة عن التراجيديا المصرية زعم فيها أن أبا نوفر هو أول بطل تراجيدى .. ولكن مايعنينا فى هذه المقالة المتعددة الطعنات .. هو طعنه فى الإسلام بمثل هذه الآراء :

« أما القضية الرئيسية فى الإسلام ، فهى العلاقة بين الإنسان والله . وهى علاقة قائمة على أساس التسليم بالحقيقة الآلهية « فالمعرفة ليست غاية على الاطلاق » وعلى الإنسان أن يذعن لما « يمكن » أن تقدره المشيئة الآلهية دون أن يساوره الشك في عدالتها وصواب حكمها » [١] .

حكاية القدر فى الإسلام ، والتهويل فيها ، شنشنة صليبية نعرفها فى كتاب الغرب من الدرجة الثالثة .. ولا نأبه بها .. فنبينا لم يستسلم للقتل .. بل حفر خندقا يقيه هجوم الأعداء ، وأرسل جنوده ليلا ليغتالوا الأعداء .. وأتقى الصحابة السهام عنه بظهورهم .. وأحتال ببراعة ليفلت

---

(١) ص ٥٣

من حصار المشركين ليلة الهجرة .. حتى معجزاته ، ليس فيها هذا القدر الخرافى ، كما يصوره الغربيون ، فلا بد من نسيج عنكبوت وبيض حمام عند مدخل الكهف ليمنع المشركين من الدخول عليه صلى الله عليه وسلم ..

ليس فى دنينا استسلام بليد للقدر . ولا خضوع ذليل لتصاريفه بالعكس .. لأنه مكتوب على ابن آدم .. أنه لا يعرف الغيب .. فإن عليه أن يسعى بكل مايستطيع لصنع مستقبله ..

أما موقف المسلمين من المعرفة .. فسأرد عليه من كتاب قدرى حافظ طوقان .. « مقام العقل عند العرب » :

قال العلاف[1] : « إن معرفة الله تعالى ومعرفة الدليل الداعى إلى معرفته تتم بضرورة العقل » .

وفى رساله الكندى للمعتصم « إن أعلى الصناعات الإنسانية وأشرفها مرتبة صناعه الفلسفة .. ولماذا ؟ لأن حدها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان . ولأن غرض الفيلسوف فى علمه ، إصابة الحق . وفى عمله ؛ العمل بالحق » ..

« وينبغى أن لا نستحى من الحق واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا ، فإنه لا شىء أولى بطلب الحق من الحق ، وليس ينبغى بخس الحق ولا تصغير بقائله ولا بالآتى به . ولا أحد بخس بالحق .. بل كل يشرفه الحق .. »

---

(١) من أئمة المعتزلة .

العاقل من يظن أن فوق علمه علما ، فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه تناهى فتمقته النفوس لذلك .. »

وتعرض الفارابى لنظرية المعرفه ، وقد أودع بعض عناصرها متفرقة فى كتبه ورسائله [1]

وكذلك يرى الفارابى أن الدين والفلسفة لا يتناقضان وليس بينهما من اختلافات جوهرية ذلك لأنهما يتفرعان من أصل واحد يحوى المعرفة والحق والحياة ــ وهو العقل الفعال ..

« ويرى الفارابى أن أكمل إجتماع انسانى هو الاجتماع الذى يشتمل على جميع أمم الأرض » ويرى الدكتور جميل صليبا أن الفارابى بمدينته كان أوسع أفقا وتصوراً من فلاسفة اليونان » [2]

وفى رساله سماها « النكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام النجوم » بين فساد علم أحكام النجوم الذى يعزو كل ممكن وكل خارق إلى فعل الكواكب وقراناتها .. » لأن الممكن متغير لا يمكن معرفته معرفة يقينية

وانتهى الفارابى من هذا كله كما يقول دى بور .. «بان هناك معرفة برهانية يقينية إلى أكمل درجات اليقين نجدها فى علم النجوم التعليمى

أما دراسة خصائص الافلاك وفعالها فى الأرض فلا نظفر منها بمعرفة ودعاوى المنجمين ونبؤاتهم لا تستحق منا إلا الشك والارتياب[3].»

---

(١) ص ١١٦ مقام العقل عند العرب .

(٢) ص ١٢١ نفس المصدر .

(٣) ص ١٢٢

ونفى ابن سينا امكان تحويل الفلزات الخسيسة إلى ذهب وفضة ، ونفى امكان إحداث هذا التحويل فى جوهز الفلزات « لأن لكل منها تركيبا خاصا لا يمكن أن يتغير بطرق التحويل المعروفة [1] .. » انظر دقة العالم .. فى قوله «الطرق المعروفة» ثم تنبوءاته لكأنه يعرف النظرية الذرية .. وحكاية الجزئ والذرة ..

« ان الانسان لايعبر إلى السعادة القصوى إلاعلى جسر من العقل والعلم » ابن سينا

وقال ابن سينا أن النظام الكلى للعالم مقدور لله تعالى ، وقد أبدعه على شكل ينطوى على الخير والشر . أما الجزئيات أى أفعال الناس فهى منسوبة إلى فاعلها لازمة لهم ولا علاقة لها بافعال البارى [2]

ويعترف نللينو بأن قياس المأمون وقياس البيرونى لمحيط الأرض من «الأعمال العلمية الجيدة والمأثورة للعرب » [3] .

« وكان يرى فى وحدة الاتجاه العلمى فى العالمين الإسلامى والغربى اتحاد الشرق والغرب . وكأنه كان يدعو إلى إدراك وحدة الأصول الإنسانية والعلمية بين الشعوب فى عالم واحد [4] » .

ولابن حزم آراء علمية ونظريات فلسفيه « هى فى الطبقة الأولى من القيمة الذاتية للحقيقة » كما يقول الدكتور عمر فروخ .

---

(١) ص ١٢٩
(٢) ص ١٣٧
(٣) ص ١٤٢
(٤) ص ١٤٢ .

ومن هذه النظريات الجديرة بالذكر والاعتبار « نظرية المعرفة » وقد عقد لها فصلا خاصاً فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل ».

ويقول الدكتور عمر فروخ « ابن طفيل فضل طريق العقل على طريق الدين [1] .

وابتدأ الجاحظ كتابه الشهير الحيوان بما يلى « جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيره ، وجعل بينك وبين المعرفه نسبا » [2] .

وخرج الدكتور لويس برنارد « أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط فى جامعة لندن » من دراساته بأن أوروبا تحمل ديناً مزدوجاً للعرب .. تعلمت أوروبا من العرب طريقة جديدة للبحث ، وضعت العقل فوق السلطة ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة » [3] .

وفى كتاب المسائل الطبيعية الذى ألفه « قبل ثمانيه قرون » العالم الأنجليزى « أدلارد أوف باث » يتجلى إعجابه بطريقه العرب فى جعل العقل الدليل والقائد ، وذلك من الفقرات التالية ، وهى موجهة من « أدلارد » الذى درس فى الجامعات العربية وتأثر بطريقه علماء العرب إلى ابن أخيه الذى درس فى جامعات الفرنجة وتأثر بطريقة علماء الفرنجة .

« إنى وقائدى ودليلى هو العقل ـ قد تعلمت شيئاً من أساتذتى العرب : وأنت تعلمت شيئاً مختلفا عنه . لقد بهرتك مظاهر السلطة فوضعت فى

(١) ص ١٧٦
(٢) ص ٢٠٤
(٣) ص ٢٢٨

رأسك لجاماً تقاد به »[1].

ويعترف غوستاف لوبون بأن العرب أول من آمن بما نطلق عليه حرية الفكر والتسامح الديني »[2].

وقال بيكون عن ابن رشد « إنه صحح كثيراً من أغلاط الفكر وأضاف إلى تراث العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها ، وأدرك كثيراً ما لم يكن قبله معلوما لأحد ـ »[3].

أظن أن هذا يكفي لأمثال شكري غالي .. وإذا كان لنا أن نقول له كلمة أخيرة.. فأننا ننصحه إن أراد الحديث مرة ثانية عن الإسلام ، أن يدرسه..

---

(١) ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ نفس المصدر .
(٢) ص ٢٢٩
(٣) ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠

الشرقاوي ..

الأرض ..

سيعود ..

الحديث عن الغزو الفكرى فى مسرحية سنيمون . . المسماه « جميلة » لعبد الرحمن الشرقاوى يحتاج إلى مقدمة . .

نعم مقدمه . . ولو طويلة جدا . . بل ولو دراسة كاملة حتى نجلو الغموض عن إدعاء التقدمية والثورية فى أدب الشرقاوى .. وقد أخترنا قصة الأرض .. لأنهما من قصة قد أحاطتها الدعاية المقصودة بجو غير الذى خلقت من أجله مثل قصة الأرض ، وإذا كان المرء يثاب رغم أنفه .. فليس من العدل أن تثاب مثل هذه القصة الرجعية ، بكل ما خلع عليها من صفات

والأرض تمتاز بأنها من لون الأدب الرجعى الإيجابى .. اختارت جانبا واضحا من الصراع الطبقى الذى شكل تاريخنا خلال سنوات ٥٠–٥٤

ولا شك ان لهذه الفترة خصائص اجتماعية وملامح طبقية يجب ان تتحدد لنتعرف على وجهها الحقيق ، وحتى نستطيع أن نضع العمل الفنى فى مكانه تماما على خريطة الصراع الطبقى .. وقبل أن نناقش قصة الأرض ، يجب ان نتفق على نقطة بالغة الأهمية ، وهى الزمن السياسى، للعمل الفنى ، أهو زمن الأحداث التى عاشها أبطال القصة ، أم زمن الأحداث التى يعيشها قراء القصة ؟

عمل الفنان .. لكى يتميز عن عمل المؤرخ ، تتحدد أبعاده بالظرف الإجتماعى المحيط بصدوره، فإذا تعرض لمشكلة إجتماعية مثارة بالفعل ، فهو متلبس زمنيا بتاريخ صدوره ، حتى لو اختار أبطاله من شخصيات الماضى السحيق ، أو من الكواكب الأخرى وبعد آلاف السنين ..

فإذا افترضنا انقساما سياسيا حول النظامين، الجمهورى والملكى، وظهر

عمل فنى يدافع عن الملكية عند الفراعنة ، فمن حقنا ان نضيف هذا العمل
بلا تردد إلى ترسانة الملكيين المعاصرين ولا يقبل الاعتذار بان العمل
صادق تاريخيا ، وأنه يتعرض لفترة غير معاصرة .. ونفس الشىء عن
قصص ويلز وهكسلى التى تدور احداثها بعد مئات أو آلاف السنين .. !

فالفن عامة يصدر عن واقع اجتماعى ، كما تصدر الرائحة عن الزهرة ،
وكما تصدر الأحلام عن الجسم ،والفن الهادف بالذات إنما يهدف إلى التأثير
فى الأحداث المعاصرة ، لا التأريخ أو تقويم الماضى ..

وقد اخترت الأرض ، كما قلت ، لأنها اكبر ادعاء لصاحبها بالثورية ،
وأخطر محاولة لتزييف الواقع الحى .. ولأنها تتخذ جانبا صريحا ، وتنحاز
الى احدى القوتين المتصارعتين فى لحظة حاسمة وفاصلة من تاريخ الثورة .

الارض .. قصة رجعية اختارت جانب الاقطاع ضد الفلاحين جانب
الحزبية ضد الشعب ، جانب الديمقراطية الشائهة ضد الثورة الاجتماعية ..

القصة اسمها الأرض .. وأبطالها هم الفلاحون .. وموضوعها هو
النظام السياسى فى مصر ..

وهى لا تطالب بالأرض للفلاحين . : ولا تهاجم النظام الاجتماعى ، بل
وجه من وجوهه السياسية ، وهى تدعو لوجه آخر لنفس النظام ، الوجه
البرلمانى ، وجه دستور ٢٣ .. وجه الحكم الوفدى .. ومتى؟ بعد ثلاثة
أسابيع من حل حزب الوفد !

تلك هى القضية التى نثيرها .. فما أدلتنا ؟ !

لنبدأ أولا بتحديد ابعاد المعركة التى دارت فى مصر فى زمن القصة:
(الزمن الحقيقى) من ١٥ يناير ١٩٥٣ إلى يونية ١٩٥٣ ثم إلى يناير
١٩٥٤ بالإضافات وصدورها فى طبعة كاملة ..

كانت بلادنا تعيش فى ثورة اجتماعية ، ظلت تتجمع لسنوات عديدة .. ولكن التحرك الثورى المتصل ، أو الحرب الثورية ، بدأت مع وصول الوفد إلى الحكم فى مطلع عام ١٩٥٠ .. كان الوفد هو أجمل واجهات النظام الملكى وأقوى أسلحته ، وباستدعائه للحكم أو بمعنى أصح بالسماح له بالوصول إلى الحكم ، كان النظام يهدف إلى ستر بشاعته ، ولكن ارتباط الوفد بالنظام ودفاعه عن مخازية ، فضح الواجهة المزركشة وثلم السلاح الأخير .. وأحرق جميع الكبارى .. ولم يعد أمام الشعب إلا الثورة ..

وفى ٢٦ يناير ١٩٥٢ نشبت الثورة ضد النظام كله بما فيه حزب الوفد الذى أعلن الأحكام العرفية ـ قبل سقوطه بساعات ـ ليمنع قلب نظام الحكم على حد تعبيره .. وفى ٢٣ يوليو انتصرت الثورة بمعناها الحرفى بانتقال السلطة من يد الرجعية إلى الشعب ..

وكما لا يعنى تحديدنا لبداية الثورة بوصول الوفد للحكم ، إنكار التطورات الثورية التى سبقت هذا التاريخ ، كذلك لا يعنى حديثنا عن انتقال السلطة إلى الشعب فى يوليو ٥٢ انتهاء الكفاح ضد الرجعية بعد هذا التاريخ ..

بالعكس لقد خاضت الثورة أعنف وأخطر معاركها بعد انتقال السلطة للشعب ، فى الفترة من ديسمبر ١٩٥٢ إلى مارس ١٩٥٤ ، فى صراعها ضد الأحزاب .. ضد الحلف الرجعى الذى تزعمه الوفد وجند له خصوم الثورة من الشيوعيين .. إلى تجار المخدرات ..

الثورة الاجتماعية التى بدأت فى مصر ١٩٥٠ ، وانتصرت فى يوليو ٥٢ وأكدت استمرارها فى مارس ١٩٥٤ هى فى جوهرها ثورة فلاحين ثورة اشتراكية ، تبدأ بتحرير الغالبية العظمى من الشعب .. أى الفلاحين ..

تحريرهم قبل كل شيء من الاستغلال الاقطاعي .. بتصفية الإقطاع . بنقل ملكية الأرض من الأقلية التي تملك إلى الأغلبية التي لا تملك .. الثورة هي تمليك الأرض للفلاحين وتجريد الطبقة الاقطاعية الخائنة عدوة التقدم والديمقراطية تجريدها من قاعدتها الاقتصادية بنزع ملكيتها الاستغلاليه ، ملكيتها الإقطاعية ..

والثورى هومن يدعوالفلاحين إلىالمطالبةبالأرض ، من يجمع الفلاحين ويثيرهم للمطالبة بالأرض ، لا الأرض التي في أيديهم .فالفلاحون ـ كما يراهم الثورى ـ لايملكون أرضا في ظل الاقطاع ، بل الأرض التي يملكها الاقطاع .. تجنيد الفلاحين للمطالبة بنزع ملكية الإقطاعيين .. هذه الملكية التي يحميها رجل الشرطة غفيرا كان أو هجانا .. والعمدة والمركز والمديرية .. والقضاء .. والحكومة .. والبرلمان .. والوفد .. والدستور.. والملك . وخلف ذلك كله جيش الاحتلال ..

والثورة تكتمل عند مايتم هذا الربط في وعى الفلاحين ، الربط بين النظام الدستورى والاستغلال الإقطاعي ، بل تبدأ الثورة بإسقاط النظام الدستورى ، لذا فلا بد من أن يصوب الثوار نيران مدافعهم على النظام الدستورى في أكمل صورة ..

ليس الثورى هو من يهاجم تزييف الانتخابات ، بل من يهاجم نظام الانتخاب في جميع صوره في ظل النظام الاستغلالي ويدعو إلى حرية التصويت من خلال تحرير الفلاح من التبعية الإقطاعية ..

ليس الثورى من يهاجم تعطيل الدستور ، بل من يشجب الدستور ، ويعارضه ، لأنه يحمى النظام الاجتماعي الاستغلالي ..

الثورى فى ظل ثورتنا من ٥٠ – ٥٤ هو الذى يهاجم حكومه الوفد وبرلمان الوفد المنتخب فى انتخابات تسمى حرة ، لأنك بإسقاط أجمل واجهات النظام الرجعى ، تسقط جميع أوجهه . .

أما الذى يهاجم حكومة السعديين والدستوريين أو ما كان يسمى بحكم الأقليات فهو على أحسن الفروض اصلاحى يتطلع إلى شكل أفضل من أشكال الحكم الرجعى علما بأن حكومه الأغلبيه المزعومه ، لم تكن تمثل فى انتخابات ١٩٥٠ أكثر من ٥٪ من الشعب المصرى إذا كان التصويت فى ظل الاقطاع يمثل شيئا ..

كان التطبيق الحرفى الأمين لدستور ٢٣ يعنى حكومه وفدية ، وكان وجود الوفد فى الحكم يعنى أن اعلام دستور ٢٣ ترفرف على النظام .. ولكن حكم الوفد الدستورى وحكم الأقليات لم يكونا إلا وجهى عملة واحده .. هى النظام الاستغلالى الاقطاعى ..

وإذا كان الدفاع عن الوفد فى ظل النظام الرجعى « اصلاحية » فإن هذا الدفاع يتحول إلى خيانة بعد سقوط النظام وحل الوفد بعد أن رفض قبول الإصلاح الزراعى ..

وليس المجال هنا مجال مناقشة دستور ٢٣ بالتفصيل .. ولكن يكفى أن تعرف أنه صدر بناء على اقتراح لجنة ملنر لتشكيل حكومة منتخبة توقع معاهدة مع بريطانيا تعترف بشرعية احتلالها لمصر ..

وقد رفض الوفد عندما كان ثوريا – ويجب أن نفهم أن ثورية الوفد لم تتخط أبدا حدود الإستقلال الوطنى – رفض الوفد الدستور وقاوم اللجنة

التى شكلتها السراى والانجليز .. وسماها سعد باشا لجنة الأشقياء ، وقاطعتها كل الجمعيات والأحزاب ، والهيئات الوطنية ، ولكنها وضعت الدستور الذى وصفه سعد نفسه بأنه على كثير من المبادىء الرجعية »

ولأن الوفد حتى ١٩٣٦ كان يعارض توقيع المعاهدة مع الانجليز فقد كان الشعب ينتخبه ، أو بمعنى أصح ، كانت البورجوازية الوطنية فى الريف والمدينة ، تسوق الشعب لانتخابه .. وكان الانجليز يقيلونه .. ذلك هو لب الصراع الدستورى الذى جرى من ٢٤ إلى ٣٥ .. فلما وقع الوفد المعاهدة فى ١٩٣٦ انتهت أزمه الدستور ، وأصبح تزييف الانتخابات عملا روتينيا يمكن لأى حكومه أن تجريه وبلا معارك أو صدام ..

لم تكن هناك انتخابات حرة بالمعنى الثورى .. بمعنى حرية الناخبين فى الاختيار ..

لم تكن هناك معركة اجتماعية حول الدستور ، بمعنى أن الحكم الدستورى لم يكن يعبر عن مصالح الفلاحين ، بل بالعكس كانت كل الحكومات تحمى الأقطاع ، وفى مقدمتها الحكومة الدستوريه التى تحمى الدستور وتتمسك به .. الدستور الذى وضعه ١٣ بيكا و ١٦ باشا .. والأفندى الوحيد فيهم كان الحاخام ناحوم أفندى .. الدستور الذى نص على حماية « النظام الإجتماعى » .. وحق الملكية المقدس ..

ولنسمع كلمات الرئيس عن الديموقراطيه والدستور فى الميثاق :

« إن حرية رغيف الخبز ضمان لابد منه لحرية تذكرة الانتخابات » .

« إن واجهة الديموقراطية المزيفة لم تكن تمثل إلا ديموقراطية الرجعية »

« لقد صدر دستور سنة ٢٣ منحة من الملك ومنة منه وتفضلا »

« إن البرلمان الذى أقامه هذا الدستور لم يكن حاميا لمصالح الشعب ، وإنما كان بطبيعته حارساً للمصالح التى منحت هذا الدستور .. »

« إن حق التصويت فقد قيمته حين فقد إتصاله المؤكد بالحق فى لقمة العيش »

« فى الريف كان التصويت إجباراً للفلاح لا يقبل المناقشة ، فلم يكن يملك إلا أن يعطى صوته للاقطاعى صاحب الأرض ، أو وفق مشيئته أو يواجه تبعات العصيان وأولها أن يطرد من الأرض التى يعمل فيها بما لا يكاد أن يكفى لسد جوعه .. »

« اشتراط تأمين نقدى باهظ ضد جماهير الشعب العامل حتى عن مجرد الإقتراب من لعبة الانتخابات ، ولم تكن إلا لعبة فى تلك الظروف .. وفى نفس الوقت فإن الجهل الذى فرض على الأغلبية العظمى من الشعب - تحت ضغط ظروف الفقر - جعل من سرية الاقتراع وهى أول الضمانات لحريته أمراً مستحيلا أو شبه مستحيل .. » .

« إن الديموقراطية السياسية لا يمكن أن تنفصل عن الديموقراطية الإجتماعية .. إن المواطن لا تكون له حرية التصويت فى الانتخابات إلا إذا توفرت له ضمانات ثلاثة .. أن يتحرر من الاستغلال فى جميع صوره ، أن تكون له الفرصة المتكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنية . أن يخلص من كل قلق يبدد أمن المستقبل فى حياته .. » .

* * *

وهكذا يمكننا أن نرسم خريطة الثورة المصرية على النحو الآتى :

من ٥٠ – ٥٢ .

رفع شعار .. « الأرض للفلاحين » وتأكيد حرمان الفلاحين من الأرض واستئثار الاقطاع بها والدعوة إلى توزيعها ..

فضح النظام الدستورى واقناع الفلاحين بأنهم لن ينالوا الأرض بالانتخابات ، ولا بالدستور .. بل بالثورة ..

من ٥٢ – ٥٤ .

مقاومة حلف الرجعية الداعى إلى تصفية الثورة بالدعوة إلى الديمقراطية: وذلك برفع شعار الأرض ضد شعار « الانتخابات الحرة »

تجميع الفلاحين حول مكاسب الثورة التى انتزعوها بتحطيم ديمقراطية الرجعية ودستورها الرجعى ؛ دستور ٢٣ .

تفتيت مقاومة حزب الوفد ، الداعى إلى دستور ٢٣ لتصفية الثورة ، وتعريته وكشف زيفه ، وتضليله للفلاحين ، وعدائه التاريخى لشعار توزيع الأرض منذثورة ١٩ إلى أن رفض إقرار قانون الاصلاح الزراعى فى مفاوضات الثورة معه قبل حله ..

* * *

فماذا فعل كاتب « الأرض » بعد خمسة أسابيع من إلغاء ثورة الشعب للدستور .. وفى صحيفة الوفد المنتفع الأول بالدستور .. ؟ !

بدأ فى نشر الحلقة الأولى (١٥ يناير ١٩٥٣) من قصة دستورية .. مذكرة دفاع ورثاء للدستور .. أشبه بمرثية انطونيو فوق جثة قيصر . .

قصة ردد فيها كلمة الدستور ١٨ مرة ، وفى صفحة واحدة ٨ مرات وفى أربعة أسطر ٣ مرات !

الدستور .. الدستور .. الدستور .. هو كل ما يطالعك من قصة تحمل اسم « الأرض .. »

« إن رجلا اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنار بعد أن الغى الدستور لحساب الإنجليز .. »[1]

كأن الدستور نفسه لم يكن لحساب الانجليز وبمشيئتهم واقتراحهم . الدستور الذى نص على أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة .. وهى مستعمرة لبريطانيا .. [2]

« فلاحين سجنوا وضربوا فى المركز من أجل الدستور »

« الشيخ يوسف نزعت منه ملكية نصف فدان بعد ذهاب الدستور »[3]

لم يجد من يقول له أنه بذهاب الدستور نزعت ملكية أسياد الدستور لاملاك النصف فدان ..

والكاتب الهادف يعى ماذا يفعل ، إنه يلخص جميع مشاكل القرية فى اختفاء الحكم الدستورى ، فى قيام حكومة غير دستورية ، فى تعطيل حق الانتخاب ..

« حكومة حزب الشعب التى أرسلت رجالا يغصبون الفلاحين على انتخاب رجالها .. هى التى تحرم الفلاحين من الماء »[4]

---

(١) ص ١٧

(٢) قد يقبل من المؤرخ تسجيل تدخل الإنجليز لإلغاء الدستور ، اما فى قصة هادفة وبعد أسابيع من الغاء الدستور .. فهو تحيز فاضح للدستور الملغى ، واثارة مفضوحة ضد الذين ألغوه . .

(٣) ص ١٩

(٤) ص ٧٤

« ان الفلاحين يعرفون بتجاربهم وحدها ، أن الحكومات التى تعتمد فى الانتخابات على رجال المركز ! هذه الحكومات نفسها هى التى تمنح الباشا دائما كل ما يريد .. »

« ويعرف الفلاحون مع كل هذا ، أن الحكومة التى لم يكن للباشا عليها كلام نافذ قد أجرت الانتخابات عليهم هم الأحياء .. » [1]

وهذا كذب . .

الفلاحون يعرفون . . وكان واجب الفن الهادف أن يعرفهم أنه قبل يوليو ١٩٥٢ لم تقم فى مصر حكومة واحدة ، لم يكن للباشا عليها كلام نافذ . . لافرق بين حكومة دستور ٢٣ ودستور ٣٠ من هذه الناحية . . كلاهما يمثل حكم باشاوات الاقطاع ..

والحل عند مؤلف « الأرض » هو عودة الدستور . . العصا السحرية التى تحل جميع المشاكل ، والتى تجلب الخير والرخاء بل حتى « البقاله المفتخرة » ..

« الناس يدركون أن الحرية هى التى توفر الطعام ، وأن الدستور هو الذى يضمن الحقوق ، وأن اختيارهم الحر لمن يحكمون ، هو الذى يضمن شروطا انسانية للحياة » [2]

لو أن مؤرخا أراد أن يؤرخ وجهة نظر الرجعية فى معركة

---

(١) ص ١٨

(٢) ص ٣٧٣

١٩٥٤ .. لما وجد أفضل من تلك السطور التى كتبها عبد الرحمن الشرقاوى فى لسان حال الرجعية .. صحيفة المصرى ..

وواضح أنه المفهوم العكسى لثورتنا .. منطق الرجعية المغلوط .. ثورتنا تؤمن بأن الطعام هو الذى يوفر الحرية ، وأن توفير الشروط الانسانية للحياة هو الذى يضمن الاختيار الحر ويكفل الحقوق ،ويشكل مواد الدستور ..

وقد يبدو أن هذا الكلام قضية مسلم بها اليوم بعد أن نص عليه الميثاق، ولكن نصوص الميثاق هى ثمرة المعركة التى دارت فى ٥٢ - ٥٤ .. والتى كان طرفاها .. الثورة التى تؤمن بارساء الديمقراطية على قاعدة من العدالة الإجتماعية يوزيع الأرض على الفلاحين هو لبنتها الأولى .. والطرف الثانى كان التحالف الرجعى مع فلول الشيوعيين الذين كانوا يريدون ضرب الثورة برفع شعار الديمقراطية .. والذين كان يثيرهم الاستيلاء «غير الدستورى» على ملكيتهم الاقطاعية ..

وكان التحالف الرجعى يعتمد على إخفاء طبيعة المعركة ، وطمس جانبها الطبقى ، بدفن شعار توزيع الأرض على الفلاحين .

وكانت الرجعية واذنابها من الماركسين يعرفون أن جند الثورة هو الفلاح الفقير الذى حرم من الأرض حتى ملكتها له الثورة .. لذلك يصب مؤلف « الأرض » حقده على من لا أرض له (!!) فالقصة التى تحمل اسم الأرض ، أبطالها جميعا ملاك .. تنتزع الحكومة الاستبدادية غير الدستورية « المعادية للوفد » .. « أرضهم » .. وأذناب الرجعية عملاء الحكومة ، هم الذين لا يملكون !

الشيخ الشناوى رجل الدين الذى صب عليه الكاتب «المتحرر» جام غضبه وحقده بطريقة خالية حتى من شكليات الفن ، فضلا عن الذوق فى معالجة رجل دين حتى ولو كان رجعيا .. سيدنا هذا « لو كان يملك قيراطا واحدا على الأقل لآمن أن الحكومة ـ لا الله ـ هى التى تحرم الفلاحين من الماء .. ولتأكد أن الحكومة وحدها (لا النظام الإجتماعى ولا الإقطاع كطبقة) هى التى تصنع المصائب »[1]

«لم يكن الشيخ الشناوى يملك فى كل أرض القرية غير المقبرة »[2]

ان الذين يملكون أرضا فى القرية يضعون ايديهم فى النار اما سيدنا فهو كخضرة (المومس) يده فى الماء ..

« شعبان رجل ضائع ليس له فى القرية أرض » [3]

لذا فهو عميل الرجعية مخرب للكفاح ضد الحكومة ..

حتى الخدم فى القاهرة لهم أرض فى البلد ، وعندما يريد أن يجتذبهم للعمل ضد الحكومة يذكرهم بالملكية .. « والقيراطين بتوع ابوك ماهم حيروحوا » [4]

وبطل القصة عبد الهادى « يقف إلى جوار الأرض التى يملكها هو والتى ورثها عن أبيه ..

بل إن الثورية والوعى ، تتناسب فى القصة طرديا مع الملكية بعكس

---

(١) ص ٩١ ـ ١٨٦

(٢) ص ١٢٤

(٤) ص ٣٠٩

تأمل كيف يقرر أن الحرية هى أساس ضمان اقمة العيش بعكس ما أفنى ماركس حياته فى اثباته . !

المفهوم الماركسى ، ولـكن الماركسية فى عالمنا العربى كانت تتمتع بصفات الحرباء فتتلون وفقا لمصالح الحلف الوقتى ، وكان الحلف الذى يسعى اليه فى ٥٣ – ٥٤ هو حلف يقوده مـلاك الأرض ضد ثورة الفلاحين المعدمين ..

والقصة حريصة على اخفاء الصراع الطبقى بين المعدمين والأقطاع ؟ حتى لتخلوا من ذكر اقطاعى واحد ، بل تـكتفى بشبح باشا لا يطمع فى أكثر من بناء قصر على سكة زراعية، وحتى الأرض التى ستنزع من الفلاحين لا يستولى عليها الاقطاعى أو الباشا .. « بل تؤمم » باسم مشروع عام هو السكة الزراعية التى يستغل الباشا نفوذه على الحـكومة غير الدستورية لجعلها تمر على أرضه !

القصة هى ملحمة بطولة .. يكتبها كفاح « ملاك » ضد حكومة « غير دستورية » .. تنزع أرضهم !

« سكة زراعية تريد الحكومة أن تشقها غصبا عن أصحاب الأرض »[1].

« معظم الذين يملـكون أرضهم فى حوض الترعة يصبحون بلا أرض إذا نفذت الحـكومة مشروع الزراعية »[2] .

« والشباب يجب أن يشتركوا فى مقاومة الحـكومة غير الدستورية لأنهم سيرثون الأرض »[3] .

والحـكومة غير الدستورية « تستولى على أرض الفلاحين لتشق فيها سكة زراعية يريدها الباشا »[4].

---

(١) ص ٢٠٠

(٢) ص ٢٠٦

(٣) ص ٢٤٢

(٤) ص ٢٦٢

« ياخدوا منا الأرض ازاى بقى ياحضرة الناظر .. ياخدوها أزاى[1] .. »

« ياخدو منا الأرض .. ما يمكنش أبدا[2] » .

« لقد تفلح القوة الغاشمة فى أن تنزع الأرض من الفلاحين »[3] .

« تونح محمد أبو سويلم على الأرض التى ظل راسخا عليها مدى خمسين عاما »[4] .

هذه « أرض » المالكين التى يدافع عنها الشرقاوى ، وإن كان يمكن لهذه القصة أن تثير حماسا ، فهى جديرة بأن تثير حماس الاقطاعيين للدفاع عن ملكيتهم لا أن تثير حماس الفلاحين الذين ملكتهم الحكومة غير الدستورية .. حكومة الثورة حكومة الشعب .. رغم أنف دستور الإقطاع الملغى ..

ولولا أننا نلتزم فى هذه الدراسة بالأدلة التى لا تحتمل التأويل . لاستنتجنا الكثير من رموز القصة التى تحكى كفاح ملاك ضد حكومة غير دستورية تنتزع الأرض من أيدى الذين يعيشون عليها[5] بينما تستطيع أن تلجأ إلى طرق أخرى هو الاهتمام بالجسر فلا تنزع ملكية أحد ..

وكان الوفد يدعو إلى الضرائب التصاعدية بدلا من تحديد الملكية .

والحل الذى يقدمه المؤلف .. هو عودة الدستور .. « فالدستور

---

(١) ص ٢٨٥

(٢) ص ٢٧٥

(٣) ص ٣٧٢

(٤) ص ٣٩٧

(٥) ص ٢٠٦

يوفر حق كل إنسان فى أن يعمل وحق الكامة فى أن ترتفع »[1]

« لئن سقطت الوزاره وعاد الدستور فسيعود محمد أبو سويلم شيخا للخفر ويروج الناس»[2]

« شوف اطرد الانجليز واطرد حزب الشعب كمان ورجع الدستور .. والقطن يبقى عال »[3]

حتى بعد خروج الانجليز يريد عودة دستور الوفد !!

وفى الأجزاء التى أضافها المؤلف للقصة ، والتى نشرت فى صحيفة المصرى فى مطلع عام ٥٤ عندما كانت الرجعيه تحلم بالنصر القريب ، وتصل بها أحلامها إلى حد تسمية رئيس الوزراء الذى سيصفى الثورة ويجرى الانتخابات الحرة ، وتكتب داعية لعودة الدستور . أى عودة الوفد .. فى هذه الأجزاء نجد أبطال القصة أكثر جرأة فى إعلان وفديتهم ..

« مش انتو بتوع يحيا الوفد » .. ؟!

فقال المحامى بطلاقه ــ ليسوا هم فقط ! دى مصر كلها[4]

« كلماتهم التى تضطرم فى الصدور وهم يرقصون على الهتاف تحيا مصر .. يحيا الوفد »[5]

« يموجون ويرقصون فى نغم قاصف .. تحيا مصر .. يحيا الوفد ».

ويختتم المؤلف قصته متمنيا لقريته داعيا لها ، معرضا بالقصة الرجعية

---

(١) ص ٢٦٨

(٢) ص ٤٢٠

(٣) ص ٢٧٨

(٤) ص ٣٣١

(٥) ص ٢٧٤

« زينب » لمؤلفها الحر الدستورى هيكل .. بينما يثنى على « الأيام » .. ربما لأن مؤلفها وزير وفدى سابق !!

تمنيت لو أن قريتى هى الأخرى بلا متاعب كالقرية التى عاشت فيها زينب .. الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء والحكومة لاتحرمهم من الرى ولا تحاول أن تنتزع منهم الأرض[7] ..

لم تذق قرية زينب اضطراب مواعيد الرى ، ولم تجرب بول الخيل يصب فى الأفواه . »

. وحديث عن الحصوة فى الكلى والبلهارسيا . ولكن . . أهذه حقا هى متاعب قرية عبد الرحمن الشرقاى .. أخلت قريته من أسس البلاء الحقيقى ومصدر شقاء الفلاحين الحقيقى ؟ ! لماذا خلت قريته وحدها من الاستغلال الاقطاعى ..

قرية عبد الرحمن الشرقاوى فى أحسن الفروض تشكو الفقر والاستبداد السياسى .. لا الاستغلال والظلم الاجتماعى

وهكذا نرى أن قصة « الماء والسكة الزراعية » لا الأرض .. قصة رجعية فى اخفائها مشكلة الفلاحين الأولى . . وهى توزيع الملكية . وكذلك فى دفاعها وتمجيدها لحزب الوفد رأس الرمح فى معسكر الرجعيه حتى مارس ١٩٥٤ .. وفى إشادتها بدستور ٢٣ الرجعى .. والذى كان الغاؤه هو شرط نجاح ثورتنا الاجتماعية .. رجعية فى دفاعها عن الديمقراطية الشكلية وجعلها مقدمة للرفاهيه او حتى العدل الاجتماعى ؟ بينما آمنت ثورتنا وعلمتنا تجاربنا ان العكس هو الصحيح ..

---

(١) ص ٣٤٤

جميلة .. أم سيمون ؟

هذا الكاتب الذى عريناه من تقدميته المزعومة ، ووضحنا أن أهم « ادعاء » له بالثورية ، وهى قصة الأرض ، ليست إلا عملا رجعيا معاديا للثورة .. إصلاحية دستورية .. تعادى الثورة والفلاحين ، وتعارض شعار توزيع الأرض وتصفية الإقطاع ، وتدافع عن حكم الوفد الاقطاعى .

هذا الكاتب .. أين موقعه من طابور الغزو الفكرى

الحق أنه يأتى فى مقدمة الصف .. بل ورائد من رواده .. وهو لا يسرب فلسفة الغزو فى مناقشة القصص أو الجنس ، أو الإشادة بسلامة موسى كما يفعل الصغار الآخرون .. بل يتعمد الإصابة فى القلب مباشرة .

اختار أعظم نصر إسلامى .. منذ صلاح الدين .. ليكيل له الطعنات ..

اختار معركة الجزائر العربية الإسلامية ليكتب عنها مسرحية جميلة .

فماذا أراد عبد الرحمن الشرقاوى بمسرحية جميلة ؟ .. هل أرادها مأساة إسلامية ؟ مأساة اضطهاد صليبي دام مائة وثلاثين عاما ، ومارسه كاثوليك وملاحده .. وشيوعيون ..

كلهم حكموا الجزائر وتمسكوا بالجزائر التى شعار مدينتها صليب منتصر وهلال منكس منهزم ! !

هل أرادها مأساة عربية ؟

مأساة شعب عربي يحرم عليه النطق بلسانه لـكى تمحى قوميته ، ويندثر دينه ..

لا ..

أرادها الشرقاوى مأساة جزائرية كما سماها بالضبط [1] .. لا عربية إسلاميـــة . .

ومع ذلك . فهل نجح حتى فى هذا الإطار الضيق ، هذا الإطار الرجعى الذى يتمشي مع المخطط الاستعمارى ، الذى نادى عشية النصر .. بالجزائر جزائرية .. لافرنسية ولا عربية ..

كلنا نعرف أن المعركة الجزائرية فى مراحلها الأخيرة ، كانت بين الاستعمار الجديد الذى رفع لواء الجزائر جزائرية .. بعد أن يئس من شعار الجزائر فرنسية ، بأمل أن يقطع روابطها الحقيقية بالوطن العربى الاسلامى . ولـكى تقع بعد ذلك فريسة عاجزة فى المحيط الفرنسى ..

وبين الذين أرادوا النصر كاملا . نصراً يتوج بعروبة وإسلام الجزائر . فمن أجل هذا الهدف وحده مات مليون شهيد

المؤلف يستعرض فى اهدائه ، أهداف المقاتلين الجزائريين وهو يستعرضها على سبيل الحصر لا على سبيل المثال .. فيقول الحرية والإخاء والأمن والحب وحياة أفضل .. » [2]

---

(١) ص ٣ عنوان المسرحية . .
(٢) ص ٥

لم يذكر لهم من أهدافهم .. العروبة والاسلام .. لا الوحدة العربية .. ولا العودة إلى محمد .. لحن الجزائر الحبيب بعد الاستقلال .

جعل لهم أهدافا تصلح للفرنسيين أو المنغولين ؟ وهو هنا يعكس تفكير الدوليين ، حيث يتصارع المطلق مع المطلق .. إلا أنه أيضا يطمس أهدافنا الكبرى . ويجرد معركة الجزائر من مضمونها الأصيل ، وهو العروبة والإسلام .. هذا المضمون الذى أصبح كسيف آصف بن برخيا ، يكشف من فى قلبه زيف أو رياء .. كل من يخالط إيمانه الشك .. أو يقول بلسانه ماليس فى قلبه . .

معركة الجزائر كانت من الجانب الفرنسى .. معركة صليبية ، يلعب الصليب فيها دور الرمز المحتاين من طابع البريد إلى الأفلام التافهة مثل « اختطاف بن بللا » .. بل إن وزراء فرنسيين لم يتورعوا عن أن يصفوا الحرب الجزائرية بأنها صراع بين الهلال والصليب ..

وكان الإسلام هو المحرك الثورى والموحد للجماهير ، كما يؤكد ثوار الجزائر .. الأكثر ثورية .. والأكثر علما بثورتهم من مؤلف « جميله »[1] .

والمسرحية كما كتبها الشرقاوى تصلح للعرض فى مسارح فرنسا إذا نجحت فنيا ـ وهو موضع شك كبير ـ لأنها فى الحقيقة تخاطب الشعب الفرنسى وتجادله بحجج فرنسية ، ومنطق فرنسى .. يهمها الدفاع عن شرف فرنسا والتقاليد النبيلة لفرنسا ..

وكان الأجدر لو سماها «سيمون» إذن لكان الاسم منطبقا على الفعل ..

---

(١) الذى يقيم فى شبرد كلما شرع فى تأليف ملحمة ثورية

فسيمون العاهرة الفرنسية هى البطلة التى أرادنا أن نصفق لها .. وأن نصفق لعناقها مع الجزائرية المسلمة .. هند !

سيمون العاهرة . . مات زوجها فى الهند الصينية . . وبعد قصة خرافية عن سوء معاملة البيروقراطية لها ، جاءت إلى الجزائر لتطعم ابنتها ، وهى حاقدة على الذين غرروا بزوجها[1] وقتلوه . . لذا تساهم فى أعمال جيش التحرير ، بل تقوم بأهم عمل ثورى فى المسرحية[2] .. ولا يفوت المؤلف أن يجعلها تنشد !

« من أجل فرنسا ما أصنع »[3] ! !

والمفروض أن تلتهب اكف النظارة فى هذا الموقف .. فلماذا حرص المؤلف على أن يدفعنا إلى التصفيق لفرنسية .. من أجل فرنسا ما تصنعه ؟ ربما من فرط انسانيته .. ومن أجل التآخى الفرنسى ـ الجزائرى ؟ !

ثم تتعانق هند وسيمون[4] .. وذلك شيء لم يحدث .. والمفروض أيضا أن يستدر هذا الموقف تصفيق النظارة .. فنصفق لعناق عربية وفرنسية .. ولقد مات مليون شهيد لكى تنتزع الجزائر العربية من أحضان العاهرة الفرنسية ، حتى لو أخفت عهرها فى جنلة مثلثة الألوان ، يسارية ، فاضحة ، ومفضوحة ..

وهل صحيح أن عاهرات فرنسا ، لعبو دورا .. أية دور فى تحرير

---

(١) ص ١٥٥
(٢) ص ١٥٠ ـ ١٥١
(٣) ص ١٥٣
(٤) ص ١٥٩

الجزائر ، فضلا عن أن يكون دورا عظيما إلى هذا الحد .. جدير بتسجيل الفنان العربى .. المفروض فيه الثورية ؟ !

نحن لا نتوقع ولا نريد من فنان عربى أن تقتصر مهمته على تسجيل التعذيب الذى عاناه الوطنيون فى الجزائر والدفاع عن عدالة قضيتهم .. فحسبنا فى هذا شهادة غير العرب ، ومنهم عدد مشكور من الفرنسيين . .

إن الثورة الجزائرية لا تحتاج إلى تبرير . . على الأقل عندنا نحن العرب .. ولكننا نتوقع من الفنان العربى ونطالبه بكشف المضمون الحضارى ، والمغزى القومى لثورة الجزائر .. وإن نزيد عداء الوطنيين للفرنسيين ، ويشحذ حجتهم للفتك بهم .. لا إثارة العطف عليهم .. لأنهم يساقون إلى حرب لا يريدونها .. وتتنافى مع تعاليم دينهم !

القضية ليست ابدا قضية الدفاع عن شريعة المسيح .. أو تبشير بالكثلكة .. أنها حرب صليبية . .

واثارة علاقة أخوية بين القاتل والمقتول لا تفيد سوى القاتل . . ومعرفة المقتول بأن الجلاد ليس سوى أداة ، لا تفيده بشيء ، ولكنها تسهل مهمه الجلاد ..

نعم ؟ .. ما المصلحة فى اثارة العطف على الفرنسيين الذين يقاتلون بدافع الفقر والحاجة ، ويتم اطفالهم ، وجوع نسائهم .. أو تحت تأثير التضليل .. قد يقال هذا فى محكمة ثورية عربية لتخفيف العقوبة عن أسراهم[1] . . ولكنه لا يقال فى عمل ثورى عربى المفروض أنه يخاطب المقاتلين العرب ..

---

(١) وإن كنا لا نعاقب الأسرى .

لقد حاول المؤلف أن يعتذر فى كل مشهد عن الفرنسيين :البؤساء الذين يعانون أزمة ضمير وتناقض بين ما يفعلونه وبين التعاليم المسيحيه !

ولقد عاقب ستالين مؤلفا روسيا ، لأنه اشاد اثناء الحرب ، بالكفاءة الألمانية .. وقال ستالين « فى الحرب .. لامكان للموضوعية » والحديث عن أخوة الفرنسيين والجزائريين ، قد تفيد فى فرنسا .. لأنها تفت فى عضد الفرنسيين ، ولكنها خيانة عقوبتها الموت على الجانب العربى المقاتل من أجل استخلاص حريته ..

لذا فهى محموده من كتاب فرنسا .. لأنها هى المعتدية . . ولأن المطلوب وقف عدوانها .. منسكورة مذمومة من كتاب المعتدى عليهم ..

ثم لماذا هذا الحرص المبالغ فيه على كرامة فرنسا ، وشرف فرنسا ، مادمنا نخاطب الثائرين العرب ..

جميلة تشيد بمقاومة فرنسا للهتلرية[1] .

وفيرجيه : ولكى يرى الشعب الفرنسى المضلل .

جان : بل ها هنا وطنى فرنسا يمتهن[2] .

جان : اهدروا اليوم تقاليد فرنسا .. التقاليد النبيلة .

إننى أصرخ فى كل مكان[3] .

---

(١) ص ١٩٤

(٢) ص ٢١٩

(٣) ص ٢٢١

إننا نهدر تاريخ البطولات المجيدة .

وحتى فى التعذيب .. لاتنسى جميله كرامة فرنسا !

جميله : من عذبنى فى سجنى تعذيبا يزرى بكرامتكم

فيرجيه : إنه صوت فرنسى شريف .

والفصل الأخير هو فرنسى يدافع عن جزائرية .. ! شكر الله سعيكم .. اليسار الفرنسى لم يدافع عن الجزائر .. بل غرق فى عار الاستعمار .. والذين دافعوا عن جميلة العربية .. جميلة المسلمة .. هم أبطال جيش التحرير .. العرب المسلمون ..

والحوار بين جان وبيير .. وخطبة بيير[1] .. لمن يوجه هذا الحديث .. لنا نحن العرب .. وما الفائدة .. أم استعدادا لترجمة المسرحية إلى الفرنسية .. إن كان ذلك هو الهدف .. لنيل رضاء المنتدى الأدبى فى باريس؟ .. فلا بأس شريطة أن نوارى النص العربى ، كما نصح أبو الأسود الدؤولى ، ابن أخيه الصفيق[2] ..

تعالوا نقلب صفحات المسرحية

ستروعنا فى البداية هذه العلاقة الأبويه بين جان الفرنسى السفاح ومبروك الثورى الجزائرى .. تخيل جان يرى مبروك يخرج من جيبه منشوراً ثوريا ليعلقه على الحائط فينهاه الضابط الفرنسى كالجدة العجوز :

---

(١) ص ٢٠١

(٢) سمع اللغوى العربى أبو الاسود الدوؤلى ابن أخيه ينطق لفظا غريبا . . فنهاه عنه ، فرد ابن أخيه .. هذا لفظ عربى لم تسمعه يا عمى . . فرد أبو الأسود ناصحا : « كل لفظ لم يسمعه عمك فواره يابن أخى كما توارى السنور خرأها » .

« مبروك هذا لا يجوز[1] .. »

لا ياشيخ .. لوان ضباط فرنسا كانوا بهذا الحنان .. لما احتاج الأمر لمليون شهيد قبل أن تتحطم أنياب الإستعمار المسعور ..

ويتطور جان بدافع من مسيحيته وضميره،إلى مدافع عن الوطنيين.. والمؤلف حريص على إثبات مسيحية جان ، وأنها هى الدافع لسلوكه الطيب ، المتعاون مع الثوار .. جان يرسم علامة الصليب ويقول :

يايسوع لا تؤاخذنى بما أخطأ غيرى[2]

ويقول : إنى لأقسم بالمسيح

بكل الآم المسيح

أنا لم أعذبهم هناك ولى خيار[3]

سخف أن نناقش الجبر والإختيار فى حرب ضروس ، وسخف أن نفكر ونحن نطلق النار .. أمجبرة تلك الرصاصة المقبلة من الجانب الآخر.. أم حرة الارادة

«حيث المسيح يعود يصلب من جديد كل يوم ألف مرة »

هل يخاطبنا نحن العرب .؟! الجزائريون لا يؤمنون بان المسيح صلب .. ولا يفهمون هذا الرمز .. نحن العرب المسلمون لا يثير فينا هذا الرمز شيئا .

---

(١) ص ٢٧

(٢) ص ٢١٣

(٣) ص ٣٦

وأبطاله مسيحيون .. الفرنسيون يعتذرون للمسيح ويقسمون به .. بينما المسلمون إذا حيوا بعضهم يقولون ..

« السلام » . . لا « السلام عليكم . . .. » وهم أيضا يستشهدون بالمسيح والصليب . . « ومنى » عندما تستشهد فمن العهد القديم :

« زوج لوط عندماالتفتت إلى خلف غدت تمثال ملح !» فترد زميلاتها المسلمات بسرعه فائقة :

هذا من العهد القديم . . !

اما عندما يستشهد جاسر بآية قرآنية فإن جميلة تتساءل فى سذاجة . . أو كأنها أبو جهل :

أأنت شاعر ؟ !

ياللوقاحه . .

صحيح أن جانبا من المثقفين الثوريين الجزائريين قد أفقدهم الإستعمار لغتهم .. ولكن فرنسا لم تستطع أبدا محو الاسلام . بل قهرها الاسلام .. قهرتها الكتاتيب التى علمت القرآن . . ومشايخ الطرق الصوفية الذين حفظوا التراث الاسلامى . . قهرها « لالا خديجة » أعلى جبل فى مناطق البربر . موسم سيدى بلال .. عيد المساواة عند السود الجزائريين . .. الاسلام قهر فرنسا . . وأعاد الجزائر إلى العروبة ..

وإذا كان المؤلف حريصا كل الحرص على اثبات مسيحية الفرنسيين الشرفاء، الذين ثابوا الى شرفهم .. فلماذا لم يلتزم الحياد ويبرز إسلامية الثوار؟

بالعكس ..

لا إشارة جادة الى الاسلام .. بل لا يرد وصف الجزائريين كمسلمين الا على لسان الفرنسيين ، من باب التحقير .. اما الثوار فيتحدثون عن أنفسهم دائما كجزائريين .. وعند الضرورة القصوى .. وإذا تحتم التعريف .. فكعرب [1] .

اما الصلاة والدين ـ الاسلامى فقط ـ فلا يذكره إلا الخونة عملاء الاستعمار او الذين يعملون فى خدمتهم ولو متنكرين ..

فالجاسوس هارون يقول :

لما لا تقوم لكى تصلى

هل سهوت عن الصلاة ؟

ويعود هارون الجاسوس يقول :

أتهين خلقة ربنا ؟

فيرد أحمد ممثل مصر هازئا كثورى أصيل :

لا والنبى .. أدخل علينا كلنا [2]

والغريب أن الذى عرف أذان العصر واستبشر به هو الضابط (عزام) الذى يعمل فى البوليس الفرنسى [3] . . ربما كان ذلك جزء من تنكره .. أو راجع إلى خدمة فرنسا التى تعلم المسلم دينه . !

---

(١) ص ٣٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ١٨١ . ..

(٢) ص ٤٧ .

(٣) ص ١٨٧ .

وقد أشير الى الاسلام .. ووردت عبارة (الله أكبر) فى أماكن متفرقة من الرواية .. ولكن على أية نحو ..

مرتان على لسان الجاسوس كما رأينا .. ومرة على لسان المحامى الخائن عميل فرنسا .. بل المؤسف أنه هو وحده الذى عرف المواطن الجزائرى التعريف الصحيح :

« انا مثلك عربى مسلم ومن حركتنا الوطنية » [1]

فترد عليه جميله فى الحال بعد هذا التعريف :

بل أنت عميل متعفن !

ومرات على لسان هند . . ولكن بعد ان فقدت عقلها !

هند : الله أكبر هذا النداء الحر يدفع موكب الفجر الجديد :

والمؤلف حريص جدا على أن يؤكد صفة الجنون عليها فيتبع ذلك بقوله :

ممثل النيابة : لا تأبهوا بصراخها الملتاث فهى ممثلة [2]

وجميلة عندما تصرخ تقول الله أكبر .. ولكن عندما تعود الى وعيها وتحاجى معذبيها تقول :

سيدى إن رحت يوما للكنيسة

وتطلعت لتمثال المسيح .. وهو فى تاج الشوك .. ففكر فى الذى عاش

---

(١) ص ٢٣٠ .
(٢) ص ٢٤٦ .

لنا منه .. وفيما عاش من اعدائه [1]

والمجنونة هند تقول :

من يوم أن ذبح الحسين وأهله فى كربلاء لم تأت غاشية كتلك [2]

واعترف .. أنى قد اعيتنى الحيل فى فهم مغزى هـذا الإستشهاد الغريب .. هل يريد المؤلف أن يعتذر عن الفحش الفرنسى .. بأنه ليس أكثر من تكرار لغاشية أخرى ارتكبها المسلمون ضد بعضهم البعض ..

هل يريد المؤلف أن يدفعنا إلى الإحساس بأن الظلم والقسوة صفات إنسانية عامة يرتكبها المسلمون والفرنسيون .. وأنه كما لم تمنع غاشية يزيد أخوة المسلمين ولا خلعته من خلافتهم ، فكذلك لن تمنع غاشية سوستيل أخوة جميلة وقتلها ؟ !

غريب أن يكون ذلك هو التشبيه الوحيد الذى جاد به المؤلف من التاريخ الإسلامى ؟

غريب .. أين وجه الشبه بين مصرع الحسين .. والاحتلال الفرنسى الصليبي فى الجزائر ؟

ثم بعض ألفاظ من باب العادة اللفظية مثل :

عاش لم يرج من الايام الاوجه ربه

ثبت أيدينا يارحمن

إن كلمات أوزيجان هى أبلغ رد على محاولات إخفاء الإسلام ، محرك الثورة الجزائرية واستبداله بكلمات لا معنى لها مثل الحب ، والاخوة

---

(١) ص ٢١١

(٢) ص ١١٣

والانسانية ، وحياة أفضل . . لكى يبدو المرء رشيقاً لطيفاً أمام العالم المتمدين .. فعمار اوزيجان الثائر التقدمى يقول :

« إن موقفنا ازاء الاسلام ، يختلف لأننا ثوريون ، مرتبطون بالشعب ذلك أن رفض الايدلوجية الإسلامية فى بلاد مستعمرة يضطهدون أكثرية سكانها الساحقة ، علامة تجدد أخرق تنادى بها فئة منفصلة عن الشعب ، غريبة الحياة والفكر ، إمتصتها أوشلتها أيدلوجية العدو المستعمر .. »

أما عن الحساسية المفرطة لدور اليسار الفرنسى والحرص الذى يثير الشك على وحدة الشعبين الفرنسى ، والجزائرى .. فقد نقدها أوزيجان فى رده الساخر على سكرتير الحزب الشيوعى الجزائرى .

وكان سكرتير الحزب قد قال فى نقده لجبهة التحرير « ينبغى القيام فى تواز مع النضال المسلح ، بعمل دائم للتربية السياسية بين صفوف الجيش الفرنسى ، وأوساط الشبان الفرنسيين ، وعلى الخصوص بين أوساط العمال والفلاحين الذين أقحمهم الكذب فى حرب ظالمة وضد مصالحهم ، وهذا يفترض موقفا أكثر دقة وإيجابية إزاء القوى التقدمية فى فرنسا .. »

سخر اوزيجان من هذا الكلام .. وأثبت أن هذه كانت مهمة الحزب الشيوعى الفرنسى أولا .. ولكنه ، أى هذا الحزب ، كان حريصا على منع الفاشية من فرنسا ولو بإخماد ثورة الجزائر .. ويتسائل اوزيجان فى سخرية .. « هل كان ينبغى لتحسين العمل اللاعنفى ـ اللاحربى ، فى الجيش الفونسى ، أن ندعو المفوضين السياسيين فى جيش التحرير الوطنى للانخراط بين صفوف الفرق المظلية والبحرية ، حيث الشبان الفرنسيون عمالا وفلاحين ، كثيرون .. ولكن حيث لايقبل العرب »

يصف اوزيجان كلام الحزب الشيوعى بأنه هزر .. وأنه دعوة لتقديم الثانوى على الأساسى ..

ونحن بدورنا نقول أن مسرحية جميلة لم تكتف بأن جعلت من الثانوى محورا لأحداثها ، بل تعمدت أن تخفى الأساسى فى قنبلة دخان وصوت .. لتحجب طبيعة الحرب الصليبية التى تشنها فرنسا ممثلة الغرب الصليبى ضد الثورة العربية الإسلامية التى كان شعب الجزائر كتيبة صدامها الباسلة ..

الراهب اللامنتمي

مرت ثلاث سنوات أو أقل قليلا على ظهور مسرحية الراهب وخفتت دقات نواقيس المبشرين بمولد التراجيديا .. الخاصة لآدابنا وفنوننا من خطيئتها وابتعدت صيحات « هللويا » يطلقها المنشدون : الفن المصرى قام . بمسرحية الراهب .. لا بالحقيقة قام .. !

وليسمح لنا المنشدون والمهللون بأن نقول كلمة فى المضمون السياسى للمسرحية .. مادام جهلنا الفنى لا يسمح لنا برؤية الروائع خاف الفكرة الساذجة المطروقة .. فكرة الحب يسمو بالعاهرة إلى مصاف القديسين وبالراهب أو القديس إلى مصاف الإنسان ..

لنقصر نقدنا على الجانب السياسى .. فهو الأهم . . ومسرحية الراهب أولا وأخيرا عمل سياسى مباشر .. لامن ناحية توقيت صدورها[1] بل إن المؤلف قد تجاوز فيها الهمس الفنى إلى الصراخ السياسى ، عندما أكد أنه إنما يتحدث عن مصر المعاصرة ، مصر التى كان علمها أخضر وله هلال بثلاثة نجوم .. عندما جعل مارتا تقول :

مارتا : وهذا ما فعلت خرجت إلى حديقة القصر لاستريح وهناك

---

(١) أسابيع بعد الانفصال .

وقدت تحت شجرة التين وأغفيت ، وفى نومى رأيت العذراء .. فى رداء أخضر .. لماذا تعلمونا الخطأ . ؟ !

ابا نوفر : فى رداء أخضر ؟ !

مارتا : نعم ، لم تكن فى رداء أزرق كما تقولون .. كانت فى رداء أخضر وكان فى جبينها هلال ، علية ثلاثة نجوم

هذه هى مصر التقليدية ، التى كنا نراها فى المسرحيات المدرسية وكاريكاتير الصحف

والمؤلف يريد ان يقول صراحة أنه يتحدث عن مصر المعاصرة ، وأنه يثير قضية الحفاظ على اسم مصر فى المعركة الفكرية الدائرة فى العالم العربى حول الإقليمية والعروبة .. وأن حكاية بيزنطه وروما ليست إلا الجسر الرمزى (وان يكن قد تخطى التزامات الرمز) الذى يعبر عليه بفكرته ..

وفى الشتاء القارص لعام الانفصال عندما كان الرئيس يتلقى ملايين الخطابات تطالب الحفاظ على اسم الجمهورية العربية المتحدة ورايتها العربية .. أراد المؤلف ان تظهر العذراء على المسرح بثوب اخضر وفى جبينها هلال وثلاثة نجوم .. ويسدل الستار وصوت شبيو يقول :

« ستلقون فى جب الاسود ، وتقلون فى الزيت المغلى لتنكروا اسم مصر فينكر بعضكم ويصمد الاكثرون ، حتى ينجلى هذا البلاء الفظيع .. »

ولكن رفض مسرحية الراهب مرتبط برفض الكتاب الذى يجرى فى نفس الخط والذى يمثل أوضح صور الغزو الفكرى وهو « المؤثرات الاجنبية فى الأدب العربى الحديث » لنفس المؤلف ..

وقبل أن نناقشه يجب أن نقول كلمة فى الانتماء وموقف مصر بالذات من محاولات دمجها فى متحد أكبر .. وموقفنا من أبانوفر عصر الشهداء وأبانوفر الحديث ..

مصر .. كما اثبتت تجربة التاريخ لاتعرف التبعية الروحية أبدا .. قد يحتلها الغزاة ويفرضون عليها حكمهم ويخضعونها لأشنع ألوان الاستبداد والقهر .. وقد تبدو فى صورة المستذله المستكينة .. ولكن روحها تبقى دائما أبدا مستقلة ، لاتبيعها لسلطان ؟ ولاتستذلها فاسفة .. ولاتنحنى لقوة .. إما أن تجبر خصمهاعلى الانحناء لروحها فتصبغه بها .. وإما أن تنأى عن قصر الطاغية ، وتفربهاإلى الصحراء وأكواخ الفلاحين، وصوامع الرهبان ، وحلقات الذكر فى المساجد .

إذاأراد الاسكندر المقدونى أن يضمها إلىإمبراطوريته فليقطع الصحراء إلىمعبد كهنتهاليرسموه باسم آمون الها .. وليتقبل صاغراطعنهم فى شرف أمه ، ويعترف بعدم نسبته لأبيه فيليب .. لأن كهنة مصر أعلنوا أنه ابن لحظة غرام بين إله المصريين وأمه .. وقعت فى قصر أبيه ..

ونسبه هذا هو سبيله الوحيد لكى يتوجه المصريون برضاهم ملكا عليهم ويدخلوه فى تاريخهم ..

أما قمبيز فيستطيع أن يحتل مصر ، وأن يقتل العجل الذى يعبده المصريون .. ولكنه يضل الطريق ولا يصل أبدا إلى معبد آمون ..

وعندما جاءت روما.. انتحرت ملكة مصرحتى لاتسيرفى موكب السبايا ولكن روما تريد أن تفرض التبعية على مصر ..

وروما الوثنية يمكنها أن تضم الى متحف الآلهة فى المتروبوليتان بضعة تماثيل لآلهة مصرية لتدور مصر فى فلك روما ..

فماذا تعمل مصر لتنجو بروحها ؟ ..

تتنصر ..

تترك آلهتها ومعابدها .. أقدم المعابد .. وأقوى آلهة . تتخلى مصر عنهم .. لأنهم تخلوا عن مصر ..

تنصرت مصر

وبدأت المعركة .. آباء الكنيسة .. أجدادى .. حماة مصر وروحها .. خاضوا معركة باسلة ووحشية ضد التبعية لروما الوثنية ..

كل شهيد منهم دماه دمائى .. وآلامه آلامى .. لأنه كان يقاتل دفاعا عن روح مصر .. وضد أن تفرض على مصر التبعية

روما الوثنية لا سلطان لها على مصر .. ومصر النصرانية لا تدين لروما بالولاء ..

ولكن روما تتنصر ، ، فماذا تفعل مصر ؟ ، ، هل ترضى أن تكون الكنيسة فى روما .. وليس لمصر إلا أسقفا تابعا ؟ !

لا .. لتنشق الكنيسة .. وليكن لمصر بطريركها ، ولتبق روحها مستقلة ، فلا تخضع أبدا لسلطان أجنبى ..

وتقاتل مصر القبطية روما المسيحية .. وتسيل الدماء ويرتفع الى سماء المجد آلاف الشهداء ..

يفر آباء الصحراء الى اديرتهم .. نائين بروح مصر عن أن تحركها سلطة خارجها ..

ذلك هو التفسير الوحيد لترحيب نصارى مصر بالجيش العربى المسلم

واللقاء الأخوى بين عمرو بن العاص وبنيامين بطريرك مصر النصرانية ..
لم يحس أقباط مصر أن الجيش العربى ، جيشا غازيا ، أو أنهم ينتقلون من سلطان إلى سلطان ، وليس المجال هنا بمجال الحديث عن عروبة مصر قبل الإسلام ، وإثبات أن مجىء عمرو بن العاص الذى لم يكن الأول بالنسبة لعمرو ، لم يكن أيضا بالنسبة لجيشه إلا واحدة من سلسلة هجرات عربية إلى وادى النيل قبل الإسلام وبعده ..

ومع الجيش العربى تحررت روح مصر . . استقلت كنيستها إلى الأبد ..

أما الاسلام فهو لا يعرف التدرج الكهنوتى .. فليس فيه أن مفتى بغداد أجل قدرا من مفتى القاهرة لمجرد أنه يقيم فى العاصمة السياسية .

أحست مصر ، بمسلميها ونصاريها بتحرر روحها وغيرت مصر لغتها وتلت الانجيل بالعربية ، واعتنقت غالبية شعبها الإسلام .. ولم ترق فى هذا التغيير قطرة دم واحدة .. بينما احتلها الأتراك ٤٠٠ عام فلم تغير حرفا من لسانها .. ولم تحس نحوهم إلا بالإحتقار .

وهكذا نرى أن اعتزازنا بمصر العربية المسلمة ، لا يعنى أبدا اغفالنا لعظمة النضال الذى شنه آباء الكنيسة المصرية ضد روما وبيزنطه .
بالعكس . .

اننا ندين لهذا النضال النبيل بحماية مصر من الفناء فى روما؛ ولولا هذا الكفاح الذى حمى جوهر مصر وأبقى على تميزها ، ما كان يمكن أن تقوم مصر العربية الإسلامية .

الذين قاتلوا دفاعا عن مصر القبطية قبل وصول جيش عمرو ، الذى حمى كنيستها من الخضوع لروما ، هم الآباء الشرعيين لمصر العربية الاسلامية .

القضية إذن ليست فى اسم مصر .. بل فى روحها .. ورغم نبوءة شبيو فى ختام مسرحية « الراهب » للدكتور لويس عوض[1] .. فإن أحدا من غزاة مصر لم يحاول أبدا أن يمنع اسمها .. وأن حاولوا سحق روحها ..

وانطلاقة الروح الحقيقية لمصر ، هى اليوم ، فى عروبتها .. بقيام الوحدة العربية ، بقيام الجمهورية العربية المتحدة ـ من المحيط إلى الخليج ـ يتحقق الوجود المصرى ، وإن اختفت كلمة مصر .. لأن العروبة هى الوجود الوحيد الممكن لمصر .. ولأن مصر فى العروبة لا تنتمى ولا تتبع .. بل تحقق ذاتها وتحررها ..

وآبا نوفر القديم .. آبا نوفر الذى قاتل روما وجاء من أعماق الصحراء حيث كان مختبئا ، ليرحب بأخيه عمرو بن العاص ، لا يمكن أن يعارض الوحدة العربيه ، بل تبتهج روحه الخالدة وهو يرى علم مصر بهلاله ونجومه ، العلم الذى يحبه ونحبه ، وفديناه بالأرواح ، ستقر روحه كما قرت نفوسنا ، ونحن نرى هذا العلم يتنحى ليفسح مكانا أعز وأرفع لراية أكبر .. هى راية العروبة . .

لأن ابا نوفر عصر الشهداء قاتل روما الكاثوليكية ، ضد التبعية لروما..فنحن معه..ولأن أبانوفر الآخر المسمى بالجنرال يعقوب عمل فى خدمة الغازى القادم من باريس .. فنحن نلعنه ونلعن كل أبى نوفر يبشر بالتبعية الفكرية ويفتح ثغرة فى حصوننا للغزو الفكرى ..

وننتقل إلى الجنرال يعقوب . .

---

(١) ص ١٢٦ .

.. والجنرال الخائن

ديسيه !! ديسيه !!

انهم يقيمون لك اثرا فى فرنسا .. فيعقوب الذى كنت
تحبه ويعزك كنفسه ، سيدفع ثلث نفقات ذلك الأثر بمفرده
بالغة ما بلغت .. وإذا بقى هذا الأثر شاهدا باخبار الوقائع
والحروب التى خضت غمارها لإسترجاع الصعيد من ايدى
المماليك واخضاعه فسيعلم الخلف منه أن يعقوب حارب إلى
جانبك واستحق اجلالك واعزازك ، وقد أخلص لك
ووهبك فؤاده من زمن مضى . . »

هذا الغزل .. بل الوله المخنث . . كتبه المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب
يخاطب روح ديسيه القائد الفرنسى الذى فتح الصعيد وأغرقه فى الدم . .

وهذا اليعقوب هو الذى يجعله الدكتور لويس عوض أول من نادى
باستقلال مصر .. وذلك فى محاضرات للدكتور بمعهد الدراسات العربية
التابع للجامعة العربية !

والجنرال يعقوب هو الذى كون فيلقا لضرب الشعب المصرى ومعاونة
الاحتلال الفرنسى ثم خرج هاربا مع جيش الاحتلال ومات على ظهر

السفينة ، فوضعوا جثته فى برميل من الروم لينفذوا آخر وصاياه الشاذة ويدفنوه مع ديسيه !

كان فى خدمة المماليك .. ثم فى خدمة أغا الانكشارية سليمان بك .. « فلما آنس فيه الشجاعة وظهرت له قوته واستعداده قدمه إلى نابليون بواطرى له اخلاصه فقربه هذا إليه[1] .

« وقد نهض يعقوب وحده باعباء تموين الحملة (حملة ديسيه على الصعيد) والجيوش المتفرقة على طول النيل »

« ومن أعمال يعقوب الحربية مع الفرنسويين أنه كان ذات يوم سائرا فى طليعة الجيش الفرنسوى الذى يتجسس مكان العدو .. وكان ممتطيا جوادا مع الفرسان . »

« كتب الجنرال مينو إلى بونابرت كتابا فى ١٠ بروميير للسنة التاسعة للجمهورية ما يأتى : إنى وجدت رجلا ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب وهو الذى يؤدى لنا خدمات باهرة ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود إضافيه .. لمساعدتنا »

ويعلق شفيق غربال :

ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات الاحتلال وبانه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بانشائها . .

والجبرتى يقول أن الفرنسيين هم الذين شكلوا هذا الفيلق وأرسلوا فى طلب الافراد له من الصعيد ..

---

(١) الجنرال يعقوب (كتيب) .

ويحكى الجبرتى « وفى خامس عشرة » سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنساوية إلى جهة الصعيد وكبيرهم ديزه ، وصحبتهم يعقوب ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت[1]

هو ، كما ترى ، رجل يعمل فى خدمة الحكام ، تناقلته أيديهم من الانكشارى إلى المحتل الفرنسى الجديد .. حيث نبغ فى العمالة وتفنن فى التنكيل بالشعب ..

والعمل فى خدمة الفرنسيس خيانة .. شرط أن نسلم بأن الوجود الفرنسى فى مصر كان احتلالا واستعمارا .

فلماذا رأى الدكتور لويس عوض فى يعقوب بطلا وطنيا .. ؟ لأنه ببساطة يرى أن الحملة الفرنسية هى التى بعثت القومية المصرية ، وهى التى أقامت فى مصر ، ولأول مرة مجلسا مصريا للوزراء وأول برلمان مصرى ! ومعها كان ظهور بداية الديموقراطية نظريا وعمليا ، بل ويسمى البيان الذى تلى فى الديوان .. أول وثيقة مكتوبة بين الحاكم والمحكوم ، لأول مرة فى بلاد لم تعرف إلا الحكم الشخصى طوال قرون الترك والمماليك .

هذا بالرغم من أن الدكتور قد شهدفى الصفحات السابقة بان المصريين ثاروا على المماليك والوالى التركى قبل الحملة الفرنسية واستطاعوا انتزاع وثيقة مكتوبة فرمن عليها الباشا ووقع عليها إبراهيم ومراد .

ولم يفت الدكتور أن يصفها بانها الأولى أيضا .

ويلاحظ الدكتور أن تلاوة فرمان الشروط هذا .. فى أول جلسة عقدها ، مايسميه بالبرلمان المصرى ، كان بمثابة « اعلان لدستور البلادوفيه

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٥

معنى ارتباط الحـــاكم أمام نواب الشعب باصول الحـكم . أو فيه معنى الميثاق » (! !)

وعندما يتلى على أعضاء الديوان انتصارات جيش الإحتلال فى أبى قير لهدف لايخفى على أحد . يسمى الدكتور ذلك « تأكيدا لمسئولية الجيش أمام البرلمان »

مسئولية نابليون أمام الشيخ الشرقاوى ! !

وهو يرى أن نابليون كان يحـاول أن يقضى على كل نفوذ أجنبى فى مصر يبعث الروح القوميـة فى المصريين . .

بينما يروى لنا الجبرتى انهم قالوا « إن مملـكة مصر صارت فى حـكم الفرنسيس لايشركهم غيرهم فيها . . هكذا قالوا وقرأوه فى ورقة الديوان »

وعندما يقتل سليمان الحلبى ، كليبر ، يشيد الدكتور لويس عوض « بالمحاكمة التى تمت بل ويعتذر عن ضرب المتهمين ليقروا ، متعللا بان تعذيب المتهمين لاستخلاص الاعترافات منهم ، كان هو العرف فى مصر أيام الترك والمماليك .

وهو نفس الاعتذار الذى أوردته مضابط المحـكمة العسكرية الفرنسية وهو اعتذار واه فأين اذن حضارة الحرية والمساواة .. وهل جاءت لتحمى هذا العرف وحده . ؟ !

وفات الدكتور أن يعتذر عن استخدام أبشع طريقة اكتشفها البرابرة أو التتار ، ونفذها الفرنسيون فى القرن التاسع عشر ضد متهم سياسى . . حرقوا يده حيا . . ثم اعدموه على الخازوق . وهو جهاز رهيب ينفذ فى احشاء الضحية بوصة بوصة .

وبدلا من أن تخفق قلوبنا بالاعجاب للبطل الخالد سليمان الحلبي قاتل كليبر قائد جيش الاحتلال .. يريدنا الدكتور أن نعجب بعدالة المحكمة .. عدالة من ينتزعون الاعترافات بالضرب .. ويحرقون الجسم الحي ويقتلون الناس على الخوازيق !

ويفسر الدكتور تاريخ الصراع فى أثناء الحملة الفرنسية .. بأن قوتين أجنبيتين كانتا تتصارعان .. الفرنسيون ضد الأتراك ..

الجانب الأول كان يحمل مبادىء الثورة الفرنسية ويسعى لإيقاظ القومية المصرية ويرسى قواعد أول برلمان ودستور ومجلس وزراء .. ويسعى إلى اقرار المساواة أمام القانون ، وادخال المدنية ، وتحويل مصر إلى دولة بورجوازية .. بل ويصف مشروع انشاء دواوين فى البلاد بانه « بالغ الخطورة » وهو أن أول جمعية تأسيسية عقدت فى مصر أوصت أولا بنظام حكم متقدم فى الحكم المحلى مما كان سينقل الفكرة النيابية إلى أعماق البلاد ويبثها فى كل أرجائها»[1] .

أما الجانب الثانى فيختص بكل الموبقات والصفات الكريهة ..

ثم يقسم زعماء مصر إلى فريقين .. فريق يقاتل ـ بدافع من معتقداته ـ الاحتلال الفرنسى تحت راية الترك وفريق يقاتل ـ بدافع من معتقداته أيضا ـ تحت راية الفرنسيين ..

يقول الدكتور . « وهكذا دفعت عمر مكرم معتقداته أن يقاتل الفرنسيين تحت اللواء العثمانى والمملوكى ودفعت يعقوب معتقداته أن يقاتل العثمانيين والمماليك تحت اللواء الفرنسى »[2]

---

(١) ص ٣٨
(٢) ص ٧٣

فى الجانب الأول .. السيد محمد كريم وعمر مكرم والمحروقى وحسن طوبار وسليمان الحلبى .. وكل الذين تعلمنا أن نرى فيهم أبطال تاريخنا لأنهم أبطال مقاومة الحملة الفرنسية . إلى أن ألقى الدكتور محاضراته فى معهد الدراسات العربية ، هذه المحاضرات التى لم تجمع بين القاتل والقتيل فى كيس واحد كما يقال .. بل جمعت الخيانة والشرف معا ..

وفى الجانب الآخر . الجنرال يعقوب وفرط الرمان ..

وهكذا يضعنا الدكتور، كما يظن، بين المطرقة والسندان، فاما أن نغفر ليعقوب تعاونه مع المحتل الاستعمارى ، وضربه الشعب المصرى ثم فراره . وإما .. فكما تدين تدان .. ونتهم عمر مكرم بالخيانة والتبعية لتركيا .

بل إن الدكتور لايضع الاثنين فى كفة واحدة كما يبدو .. فما دام الفرنسيون يمثلون الجانب الأفضل .. فإن المتعاونين معهم .. كانوا مع التطور .. مع التاريخ، مع بعث القومية .. ومن ثم فإن كبير المتعاونين يعقوب .. هو حامل لواء مصر للمصريين .. حامل بذور القومية المصرية .. صاحب مشروع لاستقلال مصر ... سافرا إلى أوروبا ليدافع عنه .. ومن ثم يستحق أن يوضع فى صف واحد كما يقول الدكتور مع محمد على وعلى بك الكبير وعبد الناصر ! لأنهم جميعا كانوا أدوات فى يد هذا الشعب العظيم[1]

---

(١) ان الحكم الموضوعى يقول ان الجنرال يعقوب ومحمد على وكل قائد أوزعيم شارك بجهد فى الكفاح من أجل استقلال البلاد من على بك الكبير إلى جمال عبد الناصر كانوا مجرد أدوات فى يد هذا الشعب العظيم ص ٧٧ .

وحقا .. كان يعقوب أداة . . ولكنه لم يكن أبدا فى يد هذا الشعب العظيم بل فى يد جيش الاحتلال لضرب هذا الشعب العظيم وابتزاز أمواله .

ووجهة نظرنا . . ان الحملة الفرنسية لم تكن إلا غزوا إستعماريا ليس مبعثه نشر مبادىء الثورة الفرنسية ، بل حلقة فى مأساة الغزو الغربى الصناعى، للشرق المتخلف .. فالدكتور نفسه يروى كيف كان قناصل فرنسا الملكية يتصارعون مع بريطانيا على ربط مصر بمعاهدات ، قبل الثورة الفرنسية .

والحملة الفرنسية كانت تشكل خطرا على وجودنا وعلى قوميتنا ، خطرا كان من الممكن أن يصيبنا باضعاف المتاعب التى عانتها الجزائر التى أحتلتها فرنسا بعد ذلك بثلاثين عاما ..

كان من المحتمل جداً لو إستقر الإحتلال الفرنسى ، أن يصاب تطورنا القومى بضربة قد تعطله لا كثر من قرن أو أن تشوهه كما حدث فى العديد من البلدان التى ابتليت بالإحتلال فى مراحل مبكرة من تكوينها أو نهضتها ..

لقد استطاعت مصر أن تحمى جوهرها العربى خلال الاحتلال البريطانى لأنه تأخر قرابة القرن .. حتى اكتملت مقوماتها وتخطت مرحلة الطفولة التى تصاب فيها الأمم بشلل الأطفال . . إذا ما احتلها المستعمر فى فجر حياتها .

والفضل الأول فى تجنيب أمتنا هذا المصير ، يرجع للوعى الصادق الذى حرك جماهير شعبنا للقتال ضد الفرنسيين من شمال الدلتا إلى أقاصى الصعيد فى حرب وطنية شاملة . . لانبالغ إن قلنا انها لم تتوقف يوما واحدا . .

وكان الثمن ، عشرات القرى أحرقت بوحشية لم يعرفها التتار . .

ومئات الألوف من الشهداء . . وملايين من الفرنكات الفضة والذهب . .

الحس الصادق لشعبنا ، وغريزته التي لا تخطىء أبدا ، دفعاه إلى أن يهب لصد الخطر الأكبر على وجوده ، المتمثل فى الاستعمار الأوروبى . . رغم الفحش التركى . .

بل نستطيع القول أنه ما من إحتلال أجنبي قد جوبه فى تاريخ مصر الطويل بمثل هذا الرفض الإجماعى والمقاومة الشاملة العنيفة . . فقد كان إحتلال مصر فى هذا الوقت المبكر خطرا على وجودها وبالذات لأن الاستعمار الفرنسي يقوم على سياسة الدمج والفرنسة بمعنى استئصال العروبة والاسلام لا المساواة القومية . . ولقد احتلت فرنسا الجزائر مائة وثلاثين عاما . . فهل بعثت فيها قومية ، أو خلقت فيها نظاما ديموقراطيا . ؟ ! فلماذا نفترض هذه النوايا لاحتلالها القصير فى مصر من مجرد مشروعاتها وبياناتها التى يصفها الجبرتى، وبحق، بالتمويه والضحك على العقول ؟ ! والتى تلقى الضرورة العسكرية عليها ظلا من الشك لا يخفى على أحد . .

بل لعل أحدا لم يذكر المصريين بتبعيتهم للباب العالى ، ويصر على تأكيد هذه التبعية مثلما فعل نابليون فى بياناته ومنشوراته . . بل تنافس مع مراد بك وإبراهيم بك فى إثبات الولاء لحضرة « سلطان السلاطين » .

« ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائما يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين، وطبيعتهم أحباب لمولانا السلطان قائمين بنصرته[1] »

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١

ويمنون على المصريين بأنهم أبقوا على « علقة » الدولة العليه . .

هذه الدولة التى كان الشعب يرى ممثلها أضعف من الألعوبة بين يدى المماليك . . يرسلون له أبو طبق فيطوى البساط أمامه ويقول إنزل ياباشا . !

فينزل الباشا ولا يطمع فى أكثر من النجاة بروحه إلى اسطمبول .. حيث يبلغ سلطانه أنه خلع ، فلا يفعل الباب العالى إلا أن يرسل للمماليك باشا آخر .

هذه الدولة التى أذلها وهزمها على بك الكبير واعلن استقلاله قبل الغزو الفرنسى بربع قرن .. والتى قاتل المماليك ثم الشعب ممثلها فور الجلاء الفرنسى

الاستقلال بمصر لم يكن اختراعا عجيبا يحتاج إلى غزو فرنسى لكى يكتشف .. بل لانغالى إن قلنا أن كل من حكم مصر وأستقر فى منصبه قد فكر فى الاستقلال بها

والرابطة مع تركيا لم تكن إلا قوة يصد بها الغزو الاستعمارى . .

فمنذ أن ظهرت سفن البرتغاليين عند الشوطىء الاسلامية ، وبدأ عهد الغزو الإستعمارى . . كان لابد للعالم الاسلامى من قوة عسكرية تحميه ضد المدافع الصليبية .. وكان الاتراك هم أقوى عناصر الأمة الإسلامية وأقدرها على القيام بهذه المهمة العسكرية فقامت خلافة آل عثمان . . وأستطاعت حقا بقوتها العسكرية ان تؤخر احتلال الغرب للعالم العربى أربعة قرون . . ولكنها لم تستطع . . أو على الأرجح تسببت فى تخلف العرب ومنعت وصولهم إلى عصر الصناعة . .

وكان من المحتوم مع مطلع القرن التاسع عشر أن تنتقل القيادة إلى الايدى العربية ، لتحقق الانقلاب الصناعى ، وتزود عن الشرق خطر

الغزو الأوروبى . . وهنا نرى على عكس ما يحدثنا الدكتور .. ان أوروبا المتمدينة هى التى عملت على أبقائنا ضمن السيطرة التركية ، وسحقت أية محاولة جادة لإنطلاق العرب نحو التطور الصناعى ..

من الخطأ اذن تصوير الصراع بين الغرب وتركيا فى هذه الفترة على أنه صراع بين قوتين استعماريتين تتنافسان على الدول العربية .. مثل صراع فرنسا وبريطانيا مثلا ..

لان الرابطة العثمانية كانت فى أحد جوانبها تمثل أحيانا ، سدا ، ولو واهيا فى وجه الاطماع الغربية ، وهى أيضا تمثل عبئا على الدول العربية بقدر ما تمكن للغزو الأوروبى ..

أساطيل أوروبا التى هزمت محمد على لم تشترط عليه أكثر من أن يظل تابعا لتركيا وأن يطبق الإتفاقيات والمعاهدات النافذة فى الدولة العلية فانهارت مصانعه وباع مدافعه خردة .. وأنتهت أكبر محاولة جادة لقيام دوله عربية حديثة تلحق باوروبا فى القرن التاسع عشر (١) ..

وأخطر مافى الاستعمار الغربى فى هذة المرحلة انه لم يكن يقوم على التفوق العسكرى وحده .. ويكتفى بالجزية وصك العملة والمناداة باسمه على المنابر .. بل فى أنه يقوم على التفوق الصناعى ومن ثم يحارب بل ويحتل دول الشرق ليمنع تطورها وليبقيها حقلا ومنجما لمصانعه ..

القضية إذن ليست فى اكتشاف النظم البرلمانية ونظرية فصل السلطات ومبدأ مسئولية السلطة التنفيذية امام التشريعية ..

---

(١) هناك أسباب لفشل المحاولة داخل نظام محمد على نفسه . . ولكن معاهدة لندن هى الاهم .

هذه قضايا ثانوية .. وهى ليست بمعجزة للعقل العربى حتى يحتاج لتعلمها على يد خبراء أوروبا ولو كان الثمن استقلاله !

المشـكلة هى المصنع .. فهو الطريق إلى البرلـمان والحرية والاخاء والمساواة . . والهدف الأول للاحتلال الغربى كان منع قيام المصنع فى الشرق .. والطريق الى المصنع عنـدنا كان فى قهر نابليون وطرده من بلادنا ورفض خداعه لنا أو اثارتنا بالظلم التركى لنقبل احتلاله فنقضى على كل أمل فى اللحوق بركب الحضارة ..

هذه المفاهيم البديهية نرانا ، آسفين ، مضطرين الى تـكرارها للرد على الدكتور لويس عوض ، على سعة علمه ، بينما لم تغب عن حاسة شعبنا فى مطلع القرن التاسع عشر . .

وهاهو الجبرتى .. الذى ماأظن أن مؤرخا معاصرا مهما حاول أن يدين الحـكم التركى ، فلن يبلغ مبلغ الجبرتى ، ولا يمكن أن تحمل نفس احتقارا وكراهية مثل ما حملت ونطقت به سطور الجبرتى عن الحـكم التركى ، وهو الذى يعلق على الشىء الذى يسميه الدكتور « لويس عوض » دستوراً . . فيقول « الى آخر ما سطروه من الـكلام ولم يعجبنى منه فى التركيب إلا قوله (عن الدولة التركية) المفعمة جهلا وغباوة [1]

وعندما يريد أن يصف وقوع شىء كريه لامثيل له يقول « ولم يقع نظيره ولا فى دولة بنى عثمان» [2]

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٣
(٢) « ج ٣ ص ٦٠

الجبرتى الحاقد على الحكم التركى .. والذى كتب أكبر وثيقة تدين هذا الحكم . . لم يخنه حسه الوطنى ، وهو يؤرخ الحمله الفرنسية ، وهو بصدقه العلمى قدعكس بامانة نادرة الشعور الحقيقى للشعب وطليعته المخلصة .

لو أن الصورة التى يقدمها الدكتور لويس عوض ومن سايره فى هذا المنهج كانت حقيقية .. أى لو أن مصر كانت ترزح تحت نير استعمار تركى فجاء الإحتلال الفرنسى مخلصا لها من هذا النير مقدما انقلابا وتغييرا فى الحياة والحكم .. ما كان الجبرتى يبدأ الجزء الثالث بحديثه عن سنة الاحتلال بأنها هى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة وتضاعف الشرور وترادف الآمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب »[1]

شرور ومحن وخراب وأهوال وتدمير .. هذا مارآه المؤرخ المعاصر الذى لم يفته تسجيل شاردة ولا واردة مما اثار اعجابه بالفرنسيين ولكنه حين أراد أن يلخص الحملة الفرنسية كان صادقا ووطنيا فى هذه العبارات : اختلال الموضوع وانعكاس المطبوع وخراب وفتن ..

لا أن يرى فيها بعث القومية المصرية وتأسيس أول مجلس مصرى للوزراء وأول برلمان مصرى فى القاهرة وتأسيس مجالس المديريات والمحافظات فى اقاليم مصر عام ١٧٩٨ وظهور بدايات الديمقراطية نظريا وعمليا فى التاريخ الحديث[2]

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢
(٢) ل . ع . ص ٣

والجبرتى يعبر عن فرحته بجلاء رسل الديموقراطية النظرية والعملية ودخول ممثلى الدولة العليه فيقول :

« فلما أصبح الخميس خامسه اجتمع الناس من جميع الطوائف وسائر الأجناس وهرع الناس للفرجة وخرجت البنت من خدرها واكتروا الدور المطلة على الشارع بأغلى الأثمان وجلس الناس على السقائف والحوانيت صفوفا فكان ذلك اليوم يوما مشهودا وموسما وبهجة وعيدا عمت المسلمين فيه المسرات ونزلت فى قلوب الكافرين الحسرات ودقت البشائر وقرت النواظر فلله الحمد والمنة على هذه النعمة ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب ويلهمهم سلوك سواء السبيل »[1]

ولا يمكن ان نتهم فرحة الشعب والجبرتى بالعصبية الدينية . . فما أظن أن أحداً قد سخر من تمسح الاتراك بالإسلام كما فعل الجبرتى .. ولكنه الحس القومى . . الذى يدرك أن العدو الحقيقى هو الغزو الأوروبى . والفرحة الصادقة التى أحسها الشعب المصرى بخروج الفرنسيس وعودة الجيش السلطانى أسوأ جيوش الأرض وأفحشها سلوكا وخلقا . . هذه الفرحة واعية .. بل أنها جديرة بأن تغمر نفوسنا حتى اليوم كلما فكرنا فيما كان سيؤول إليه مصير العروبة، لو أن نابليون قد استقر فى مصر وتحققت أحلامه فى « تمديننا وتعليمنا الديمقراطية » .. وفعل بنا ، ما فعله بغيرنا الاستعمار الفرنسى ، بل ما عجز عن أن يفعله كاملا بغيرنا .. لأن مصر نجت من الاحتلال الفرنسى وبقت حصنا للعروبة والإسلام لا تزود عن

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٨٩ — ١٩٠

نفسها فحسب بل وتحمى عروبة وإسلام اشقائها[1] ..

هذا ما يجعلنا ننحنى إعجابا وتقديرا لأجدادنا الفلاحين « وللذعر والرعاع » فى الحسينية وبولاق وقد بذلوا أرواحهم ودماءهم ، وحملوا عصيهم وفئوسهم ليقاتلوا الفرنسيين الكفرة ..

ونترحم مع الجبرتى على المملوك أيوب بك الدفتردار الذى أختص وحده بمنقبة الاستشهاد فى يوم انبابه[2]

صحيح أن الاتراك هم شرأهل الأرض ؛ وهو شعبنا الذى قال « ثلاثة خلقن للفساد القمل والترك والجراد .. » ولكن منذ أن وصلت سفن فرنسا المثلثة الألوان إلى الاسكندرية تغيرت القضية تماما .. أصبح لاخيار .. إما أن تبقى مصر ، مصرية عربية ، وإما أن تفنى تحت نير الاستعمار الغربى .

وهنا لا يتردد الوطنى ، فالقضية ليست قضية اصلاحات وتمدن .. بل وجود أو لا وجود ..

وأوروبا الاستعمارية لم تحمل لنا المدينة بل هى الى عاقت تقدمنا وشلت تطورنا .. وما كان لنا سبيل للحاق بها ، إلا بقهرها ، وابعادها عن بلادنا .

ولا يجوز أن تخدعنا هذه الألاعيب التى اقامتها فى بلادنا ، والتى

---

(١) لا يمكن أن يغفل منصف دور مصر فى تحرير الجزائر بل وفى حماية العروبة كلها . . فماذا ياترى كان يجرى لو أن مصر تفرنست فى مطلع القرن التاسع عشر . .

(٢) ص ٦٦ .

لا تزيد إن لم تنقص عن نظم الحكم التى أقامها الإستعمار الغربى فى كل مكان بغية تحطيم الجهاز الوطنى الذى يمثل المعارضة رغم تخلفه ..

الاصلاحات الادارية التى يقيمها الاستعمار لا تهدف إلى تمدين المستعمرات والأخذ بيدها بل تهدف إلى تيسير حكمه لها ، وتنظيم واحكام استغلاله لها ..

تأمل كيف يروى الجبرتى تشكيل الديوان : « وفى يوم الثلاثاء عدت الفرنساوية إلى بر مصر ، وسكن بونابرت بيت محمد بك الألفى .. وفى يوم الخميس أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقليه عند قائمقام صارى عسكر ، فلما استقر بهم الجلوس ، خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة انفار من المشايخ للديوان . .

« وفى يوم السبت اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفه ، وهى مقدار خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الافرنج أيضا ، فسألوا التخفيف فلم يجابوا ، فأخذوا فى تحصيلها »[1]

الأمر كما ترى شديد البساطة ولا داعى لفلسفته .. الثلاثاء عبروا والخميس جمعوا المشايخ وشكلوا الديوان والسبت طالبوهم بالدراهم ، فسألوهم التخفيف فلم يجابوا ..

الديوان اذن ليس إلا جهازا يجمع الضرائب والغرامات .. لا برلمان ولا مجلس وزراء ولا دستور .. فضلا عن أن تستخدم كلمة ميثاق .! فهو عبث بالمسميات لا يليق ، وتحميل التاريخ مالا يطيق ..

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١١ ــ ١٢

وفى ملحوظة نادرة الذكاء يسجل الجبرتى طبيعة الديوان عندما يقول « فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس فاذنوا لهم فى الذهاب »[1]

الا توحى هذه العباره « فأذنوا لهم » بأنهم رهائن

والجبرتى أيضاً يروى « وفيه أهمل أمر الديوان الذى يحضره المشايخ ببيت قائد أغا ، فاستمروا يذهبون اياما فلم يأتهم أحد فتركوا الذهاب ، فلم يطلبوا » .

وعندما كان « ممثلو الشعب » ينجحون فى جمع الاتاوة ، كان سر عسكر لايرسل جنوده « ليشيعوا التفتيش وفى كل يوم ينقلون على الحمير والجمال من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما لا يحصى .. »

« واشتد الأمر بالناس ، وضاقت منافسهم ، وتابعوا نهب الدور ونزل بالرعية الذل والهوان » .

« اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل يسمى شكر الله (كان يتعاون مع المحتل بدافع من معتقداته ، كما يرى الدكتور) فنزل بالناس منه مالا يوصف ، فيأمر بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر » .

« فإذا فتحوا حاصلا من الحواصل قوموا مافيه بما أحبوا بابخس الأثمان ، وحسبوا غرامته فإن بقى لهم شىء ، أخذوه من حاصل جاره (! !) ونقلوا البضائع على الجمال والحمير والبغال وأصحابها تنظر وقلوبهم تتقطع حسرة على مالهم » .

لاشك أنه بعث للقومية بطريقة عنيفة يادكتور !

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٩ .

وما الفرق بين النهب والسلب على يد عساكر العثمانلى السلطان سليم ، والنهب والسلب على يد محطمى الباستيل جنود نابليون ابن الثورة الفرنسية . . ؟ ! ألأنهم حطموا باستيلهم ، تغفرلهم سلب أموالنا وتحطيم بيوتنا ؟ !

شعبنا لم يفرق إلا بأن الإستعمار الفرنسى هو الخطر الداهم .

وتأمل هذه « النكته » على حد تعبير الجبرتى .

بعدإخماد ثورة القاهرة الثانية (بمعاونة الخونة من أمثال يعقوب) جمع ساري عسكر الرهائن . . نواب الشعب . . أعضاء مجلس النواب الأول أو الثانى . . « وجلس ساري عسكر على كرسى فى وسط المجلس ، وقال كلاما طويلا بلغتهم حتى فرغ فالتفت الترجمان إلى الجماعة وشرع يفسر لهم مقالة ساري عسكر ويترجم عنها بالعربى والجماعة يسمعون فكان ملخص ذلك القول أن ساري عسكر يقول لكم يطلب منكم عشرة الآف ألف إلى آخر العبارة الآتيه » . . ثم يقول للمهدى « وإذا كان الأمر كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة (أى قمع الثورة) ولا غير ذلك فما فائدة رياستكم وإيش يكون نفعكم » ؟

وبعد أن ألقى ممثل الحكومة بيانه . . قام من فوره مع أصحابه إلى داخل وأغلق بينه و بينهم الباب وترك نواب الشعب أعضاء البرلمان يبولون على أنفسهم .

نعم ! .. اسمعوا الجبرتى ..

« فبهت الجماعة وانتقعت وجوههم ، ونظروا إلى بعضهم البعض

وتحيرت أفكارهم ، ولم تزل الجماعة فى حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل منهم أن لم يكن شيئا مذكورا ولم يزالوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان »[1] .

والذى تولى تحصيل هذه « الفرده » المرعبة هو الجنرال يعقوب بطل الدكتور لويس عوض .. يقول الجبرتى « وركب سارى عسكر (كليبر) من يومه ذلك وذهب إلى الجيزة ووكل يعقوب يفعل فى المسلمين مايشاء »[2] .

« ثم أنهم وكلوا بالفردة العامة وجمع المال ، يعقوب وتكفل بذلك وعمل الديوان لذلك ببيت البارودى » !

ليسمح لنا الدكتور أن نروى كيف نفذ يعقوب مهمة « تنظيم مالية البلاد » نقلا عن الجبرتى الذى يرضى شهادته دون تحفظ ..

« وبثوا الأعوان بطلب الناس وحبسهم وضربهم فدهى الناس بهذه النازلة التى لم يصابوا بمثلها ولا مايقاربها ، ومضى عيد النحر ولم يلتفت إليه أحد بل ولم يشعروا به ونزل بهم من البلاء والذل ، مالا يوصف فضاق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ومنعوا المسلمين من ركوب البغال ماعدا خمسة أنفار هذا والكتبة والمهندسون والبناؤن يطوفون ويحررون وخرجت الناس من المدينة ، وجلوا عنها ، وهربوا إلى القرى والأرياف » .

« وفى كل وقت وحين يشتد الطلب وتنبث المعينون والعسكر فى

---

(١) ص ١٠٧

(٢) هذه المهمة التى وكلت ليعقوب يصفها الدكتور بقوله « وكلفه كليبر بتنظيم مالية البلاد » .

طلب الناس وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلتهم وحبسهم وضربهم »

« فدهى الناس وتحيرت أفكارهم واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم وأشيع أن يعقوب تكفل بقبض ذلك من المسلمين يقلد فى ذلك شكر الله وأضرابه » [1] ..

أهذا تسميه تنظيم ماليه البلاد يادكتور ؟ !

وإذا كان الأمر كما تقول : « كانت فرنسا يومئذ فى مقدمة دول العالم فى الفلسفه السياسية والإجتماعية والقانونية ومن أكثرها عصرية فى أساليب الإدارة والتنظيم ومن أرسخها قدما فى العلوم والفنون والآداب والتكنولوجيا ، على حين كانت الأمبراطورية العثمانية وممالكها تعيش فى عزله العصور الوسطى ، وجهالتها وقيمها الأقطاعية التى كان لا يمكن أن تؤسس عليها دولة حديثة [2] .

صحيح ! .. ولكن فى النهب والسلب وتحطيم الدور وتحصيل الضريبة بالكرباج ومن الجيران .. لا يختلف كلير عن خورشيد .. غير أن الأول يعنى القضاء على الوجود القومى والثانى كان يشكل بتخلفه وجهله ثغره خطيرة ينفذ منها استعمار الأول .

لذلك ثار الشعب على الاحتلال الفرنسى والمتعاونين معه .. وكانت ثورة القاهرة الأولى والثانية .. ولأن خيانة يعقوب كانت سافرة ،

---

(٢) ج ٣ ص ١٣٨

(٢) ل . ع . ص ٢٤

وانحيازه للفرنسيس واضحا فى الثورة الثانية نرى الدكتور يشنع على هذه الثورة ويشهر بها فيصفها بأنها من البداية حتى النهاية كانت قيادتها بيد الأتراك والمماليك المعسكرين بمشارف القاهرة والمتسللين إليها وعملائهم من المغاربة والغرباء يريد بذلك أن يبرركون يعقوب قد « كرنك بداره فى الدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعه الأولى » .

ثورة القاهرة الأولى التى يشهد الدكتور نفسه بأنها ٣ أيام مجيدة !

ولكن يعقوب عميل الإحتلال يتخوف من مواطنيه بعد ثورتهم الأولى فيشيد قلعة ويحشد فيها السلاح والمقاتلين ، حتى إذا جاءت «الواقعة الثانية « حول بيته إلى قلعة أو إسفين فى جبهة الثوار .. وبعد اخماد الثورة يقرر كليبر تكوين فيلق لضرب الشعب ويعهد إلى يعقوب بتشكيله وقيادته .. ويعتذر الدكتور عن يعقوب ، ولو على حساب التاريخ فيقول أن الفيلق قد تكون ليعاون الفرنسيين فى حربهم ضد المماليك

غير صحيح .. لأن الدكتور هو نفسه الذى يعتذر فى مكان آخر من نفس الكتاب فيقول أن تكوين الفيلق كان رد فعل لإنحراف ثورة القاهرة الثانية إلى حرب دينية صريحة ، بل ويبالغ فى الاعتذار إلى حد اتهام هذه الثورة بالعنصرية والعمالة .. « والذهب المتدفق من تركيا وانجلترا » ! !

من أجل تبرئة يعقوب الذى كرنك ، مكتوب على ابن آدم أن يتهم بالعمالة والتعصب . . أجداده الذين بذلوا أرواحهم فى ثورة القاهرة الثانية !

والثابت أنه لم تكن هناك حرب بين الفرنسيين والمماليك فى هذه

المرحلة بعد أن رضى مراد بك بدور التابع وبعد موقفه المخزى من ثورة القاهرة الثانية الذى فضحه الجبرتى .

« وأما مراد بك فإنه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيس على الباشا والأمراء بالمطرية وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل وذهب إلى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل من الأمور وأقام مطمئنا على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنساوية[1] »

« ومنها أن مراد بك عند توجهه للصعيد بعد انقضاء الصلح أخذ ماجمعه درويش باشا من الصعيد من اغنام وخيول وميره وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر[2] »

وليس من العدل أن نتهم ثورة القاهرة بأنها كانت « حربا دينية صريحة » لمجرد أنها هاجمت يعقوب الذى كرنك.. لأن الثوار الذين هاجموا يعقوب هم الذين أمنوا جرجس الجوهرى وفلتيوس المالطى اللذين ساهموا فى الثورة بأموالهم . . وهم الذين نهبوا دار الشيخ خليل البكرى وسحبوه مع أولاده وحريمه وحصلت له إهانة بالغة لأنهم اتهموه بموالاة الفرنسيس وهجموا بيت مصطفى أغا مستحفظان لأنه يأوى فرنسيس وخنقوه ليلا بالوكالة التى عند باب النصر ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد »

فلماذا يشوه مؤرخ عالم هذه الثورة التى لم تفرق بين الأديان فى الوطنية والخيانة .. لماذا يتهمها فى محاضرات بمعهد عربى :« تحولت ثورة القاهرة

---

(١) ج ٣ ص ٩٥

(٢) ص ١١٣

الثانية إلى مسرح للمذابح الدينيه ومرجل للضغائن الشخصية فاستبيح فيها كل شىء »

الجبرتى ولو أنه لم يشترك فى الثورة ، إلا لأنه مؤرخ أمين .. سجل كل مظاهر الضعف فى ثورة يقوم بها سكان عاصمة شرقية فى مطلع القرن التاسع عشر يعاونهم أفسد جند فى العالم .. ولكنه أبدا لم يلعن الثورة بل خفق قلبه بحبها

« ولم ينم أحد ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف[1] »

أهذه كلمات رافض للثورة ؟!

« وباشر السيد احمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه وأعان بعضهم بعضا وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونه[2] » .

« وجرى على الناس مالا يسطر فى كتاب ولم يكن لأحد فى حساب ولا يمكن الوقوف على كلياته فضلا عن جزئياته منها عدم النوم ليلا ونهارا وعدم الطمأنينة وغلو الأقوات وفقد الكثير منها خصوصا الادهان وتوقع الهلاك كل لحظة »[3]

شكرا يا مؤرخنا العظيم فقد حميت شرف أمتنا من الذى يتهم اجدادنا بالثورة بدافع الذهب التركى والانجليزى !!

---

(١) ص ٩٣ .

(٢) ص ٩٤ .

(٣) ص٩٨ ج ٣ الجبرتى .

ولما قهرت « ثورة القاهرة الثانية » كما تعلمنا أن نصفها .. و« الحرب الدينية الصريحة» كما يعلم الدكتور لويس ابناءنا فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة .

بعد أن قهرت الثورة أو الفتنة كما يرى الدكتور ، تولت أمة الحرية والمساواة والاخاء تطبيق الديموقراطية عمليا بعد أن طبقتها نظريا .. يقول الجبرتى « وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحه فى الطرقات والأزقة .. والذى وجدوه منعكفا فى داره أو طبقته ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه وعروه من ثيابه ... فحبسوا البشتيلى بالقيلة والباقى ببيت سارى عسكر وضيقوا عليهم حتى منعوهم البول وفى اليوم الثالث أطلقوهم وجمعوا عصابة البشتيلى من العامة وسلموهم البشتيلى وأمروهم أن يقتلوه بأيديهم[1] .

الدكتور لويس عوض يريدنا أن نلعن أبطال بولاق أو حتى أن نغفر لهم أنهم بدافع العصبية الدينية قبلوا الموت والهلاك .. وأن نشيد بيعقوب الذى « كرنك » بداره وقاتل مع الفرنسيين وكون فيلقا لضرب الشعب ..

والدكتور يحاول أن يجعل موقف يعقوب مشابه لموقف المشايخ الذين قبلوا عضوية الديوان مثلا .. والفرق كبير بين « من هو فى القبضة مأسور»

---

(١) ص ١٠١ ـ ١٠٢

كما يقول الجبرتى .. وهم المشايخ الذين قبلوا عضوية الديوان أو المناصب التى اخترعها المحتل بدافعين :

● الأول .. هو حماية الرعية من التنكيل والإبادة ومنعا لتصدى من تحركهم الاحقاد فى حالة المقاطعة الوطنية للسلطة المحتلة .

● والثانى .. هو الضعف البشرى الذى يحتم مداراة القوة الغاشمة التى لاسبيل إلى دفعها .. والفرق واضح بين من يقبل عضوية الديوان أو حتى يبرق مهنئا إلى فرنسا تحت تأثير الارهاب والضغط ولكنه لايتردد فى إلقاء شعار الثورة الفرنسية متأففا .. أو يحمل « الوردة » (شعارهم) إذا دخل على الحكام ويخلعها إذا خرج مستغفرا ...

وبين الذى يقبل تكوين جيش لضرب مواطنيه ثم يتبرع بثلثى نفقات إقامة تمثال لأحد قادة جيش الاحتلال ويتمنى أن يدفن معه فى قبر واحد .

وعندما تقرر جلاء الفرنسيس اقترح يعقوب أن تلجأ فرقة فرنسية إلى النوبة وتدعى العصيان ، ثم تعود لاحتلال مصر بعد جلاء الانجليز !.. ولعله بذلك كان يسبق مخطط منظمة الجيش الفرنسى السرية فى الجزائر بقرن ونصف !

وفى النهاية يخرج مع فلول الجيش المهزوم من البلد الذى خانه .. وعلى بارجة انجليزية ركبها يوم ١٠ أغسطس ويوم ١٢ أصيب بالحمى ويوم ١٦ أغسطس مات وآخر كلماته أنه يريد أن يدفن مع ديزيه .. « فوضعوا جثته فى برميل خمر ونقلوه إلى مرسيليا » ..

ومن برميل الخمر تنطلق « حكاية » تزعم أنه على ظهر البارجة البريطانية فاجأ القدر ودخل التاريخ بأول مشروع لاستقلال مصر . !!

متى ؟ ! .. يقول الدكتور قبل إصابته بالحمى ؟ أى فى ٤٨ ساعة كانت السفينة تتأهب فيها للرحيل بجيش معادى منهزم ! ! أى وقت جميل لبحث مشروع دولى ؟ .. ولماذا لم يعرضه على الفرنسيين خلال ٣ سنوات من احتلالهم .. ولماذا لم يذهب إلى معسكر القائد العام للجيش البريطانى فى مصر ؟ !

وسواء أكان المشروع من اقتراح المجنون عديم الجنسية لاسكاريس . أم من نمر أفندى أم من اختراع الانجليز الذين نشروا المشروع لأول مرة فى ١٩٢٤[1] .. مهما يكن مصدر المشروع وصحته .. فهو على أحسن الفروض مشروع لتدويل مصر وإقامة حكم طائفى يعيش على اثارة الصراع بين الطوائف وبحماية جيش احتلال دولى ، يسميه الدكتور « بوليس دولى بلغة العصر » !

يقول الدكتور « الجنرال يعقوب يرى الحل فى وجود قوة أجنبية مرتزقة فى مصر وهى فى نظره كافية تماما لرد عدوان الاتراك على حدود الصحراء » .

هل كان الخطر على مصر وعلى الشرق من الاتراك .. الرجل المريض . . أم من الاستعمار الأوروبى الزاحف ؟ !

والمشروع المزعوم يقول فى خبث « ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا

---

(١) فى هذه السنة ألغيت الخلافة من تركيا . . وثارت فكرة لاعادتها عربية . . وفى مصر بالذات . .

المقام أن مصر المقسمة إلى طوائف متعددة تتوفر بها الوسائل اليسيره لإقامة التعارض فيما بين هذه الطوائف فتتكافأ بذلك قواها »

الدكتور يسمى ذلك استخدام توازن القوى !!

ونحن نعيذ نسبة هذا القول إلى أى مصرى حتى ولو كان طريح برميل الروم ..

والمشروع يطلب الحماية من الدول السامية المتعاقدة ويعرض على بريطانيا التجسس لحسابها ويقدم لها شفرة لتستخدمها مع بقايا اعوانه فى مصر . . ومن يدرى لعل هؤلاء هم من كانت حملة فريزر تنتظر معونتهم . .

والتجسس ليس غريبا على يعقوب وقد سبق أن كلفوه بانشاء شبكة للتجسس تمتد من مصر إلى الشام

وإذا كان الدكتور لويس قد نشر فى كتابه هذا المشروع المريب والمشكوك فى أصله تحت عنوان « الوثيقة رقم ١ والوثيقة رقم ٢ . . فليسمح لنا أن نضيف إليهم الوثيقة رقم٣ . .

من نمر افندى لوزير الخارجية الفرنسية تالليران ١٨ صفر ١٢١٦

« سينزل فى مرافىء الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذى تم جلاءه عن مصر . والوفد المصرى[1] بالرغم من أنه قد حرم من رئيسه الجنرال

---

(١) الدكتور يثير ضجيجا حول عبارة « الوفد المصرى » زاعما انها تعنى التطلع للقومية المصرية . . مع أن الجبرتى يسمى المماليك الأمراء المصرية وفرعون يقوله اليس لى ملك مصر . . والثوار الذين حاصروا عثمان بن عفان اسمهم فى كتب السيرة المصريين ! . . فـكلمة مصر ومصريين لم تخترع فى القرن التاسع عشر . .

يعقوب الذى مات اثناء السفر يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ويرى من واجبه أن يلجأ إليك ايها الوزير لتتفضل وتضعه وهؤلاء المهاجرين فى كنفك »

فات الدكتور أن يسجل للوفد أنه أول من ادخل نظام اللجوء السياسى فى الشرق . .

يقول نمر « واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول تحقق دون عناء ما عجزت عن تحقيقه ـ اللهم إلا الجزء الضئيل منه ـ الملكية الفرنسية المطلقة »

وأحد اعضاء هذه الوفد انضم إلى الجيش الفرنسى وظل به إلى أن مات فى ١٨٤١ وأغلب الظن أنه اشترك فى فتح الجزائر . . ومن حقنا أن نتساءل . . إن كان قد سافر لفرنسا سعيا لاستقلال مصر فلماذا لم يعد فى عصر محمد على ؟

بئس ما اختار المؤرخ لقومه . . هذا اليعقوب بداية لتطورنا القومى! بينما المعقول هو أن عمر مكرم الذى تزعم مقاومة الاستبداد المملوكى قبل الاحتلال الفرنسى هو الذى . . رفض الخضوع للاحتلال . . هو الذى قاتل مع المحروقى فى ثورة القاهرة الثانية ضد كليبر ولو تحت قيادة الوزير التركى وهما معا حاصرا الباشا التركى فى القلعة بعد جلاء الفرنسيين ، حتى خلع وأجبر السلطان على فرمنة من اختاره الشعب .. هو عمر مكرم الذى قاتل الغزو الانجليزى فى رشيد .. وهو الذى تصدى لاستبداد محمد على . .

هذا هو التطور السليم للحركة القومية .. لا أن نفتش عليه تحت أعلام فرنسا ، وفى برميل خمر يحمل جثة خائن فرارى .. هارب من وطنه[1] ..

* * *

غير أن الجنرال يعقوب ليس إلا « الخلفية التاريخية » لما يريد الدكتور لويس عوض أن يحفره فى عقول طلابه بمعهد الدراسات العربية . . وخارجه . . تماما كما كانت الحملة الفرنسية هى المقدمة للغزو الفكرى الذى تتابع منذ وصول نابليون إلى شواطئنا حتى انتهى إلى الاحتلال العسكرى للوطن العربى كله من المحيط إلى الخليج . .

فبعد أن نسلم ، مع الدكتور ، بأن الحملة الفرنسية هى بداية تاريخنا الحديث وأن كبير المتعاونين معها هو رائد القومية . . !! ينطلق الدكتور فى دراسته لرفاعة الطهطاوى ويقرر لنا :

« إن فكرة الحرية بمعناها السياسى والمدنى فكرة لا تقاليد لها فى المجتمعات العربية ، أو فيما نبع عنها من فلسفة الفلاسفة أو فقه الفقهاء ، أو أدب الأدباء ، بل إن مدلول كلمة « الحرية » فى اللغة العربية ذاتها ، مدلول مختلف عن كلمة **Libertas** اللاتينية التى خرجت منها كلمة (ليبرتيه) ومشتقاتها من اللغات الأوروبية الحديثة فهى لا تستعمل

---

(١) لا يفوتنى أن اعترف بأن حكاية يعقوب هذه قد ارتكبت انا خطيئة ترديدها والإشادة به .. ولكن عذرى أن ذلك كان منذ أربعة عشر عاما وكنت لم ابلغ سن الرشد بعد عند ما ألفت كتابى الأول « مصريون . . لا طوائف » .

في معناها الأصلي في العربية إلا كمقابل للعبودية . . . »[1] .

« وقد اقترن بهذا الوضع اللغوى ، وضع حيوى وهو أن كلمة (الحرية) لم ترفع أبداً كشعار أو مبدأ أو هدف سياسى أو اجتماعى في كل ما نشب من ثورات أو حركات استقلالية فى العالم العربى قبل القرن التاسع عشر . . »[2] .

ومن ثم (الحرية) إذن بالمعنى السياسى والإجتماعى الشامل المتضمن في كلمة **Libertas** نتيجة لاتصال العرب بالحضارة الأوروبية وبالفكر السياسى والإجتماعى الغربى فى القرن التاسع عشر »[3] .

شكرا يا دكتور . . .

هذا هو ما نعنيه (بالغزو الفكرى) أن تؤمن بأن عدوك الألد هو ولى نعمتك .. أن ينشأ جيل يؤمن بأنه يدين بتعلم الحرية لأوروبا . . لا أنه فقد الحرية بسبب أوروبا، التى احتلت بلادهم وقضت على حريتهم ...

لا . . الدكتور يعلم الطلبة العرب . . أن الجزائر عرفت الحرية يوم الاحتلال الفرنسى لها . . ومصر يوم احتلال فرنسا ثم فقدتها إلى أن عادت لها على بوارج « سيمور وش القملة »[4].

الدكتور يعلمنا أن أوروبا هى التى علمتنا الحرية . . الحرية التى لم نعرفها ، ولم نثر من أجلها . . بل عجزت لغتنا عن أن تجد لفظا لها . .

---

(١) صفحة ١٢٥ .
(٢) صفحة ١٢٦ .
(٣) صفحة ١٢٦ .
(٤) قائد الأسطول البريطانى سنة ١٨٨٢ .

تماما كما تعجز لغات الشعوب البدائية عن العد فنقول على ما جاوز العشرة . . كثير ! !

وهل بعد ذلك من استسلام للغزو الأوربى . . ؟ ! أن يقوم فينا من يؤمن ويعلم بأن أوروبا علمتنا الحرية . . وهل بعد ذلك من ظلم وافتراء على تاريخنا . . ؟ !

نحن العرب . . الأمة الوحيدة — وقانا الله شر العنصرية التى لا يعرفها ديننا ولا خلقنا العربى — التى مارست الحرية كحق طبيعى لا يقبل المناقشة ولا يحتاج إلى إقرار أو استصدار قانون . .

نحن العرب . . أمة تعاتب الملك الجبار ، إذا صعر خده للناس ، بسيوفها . .

أمة كان رجلان من عامتها يتراهنان على التعريض بأرداف أمير المؤمنين فى المسجد !

أمة منها أبو مريم السلولى . . مسلم أرتد ، وقتل فى ردته الشهيد زيد بن الخطاب ، ثم أسلم فحمى الإسلام دمه وماله . . ويدخل على عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وأقوى حاكم فى عصره . . فلا يخفى أمير المؤمنين عواطفه ولا يتظاهر بحب قاتل أخيه ، فذلك ضد طباع البشر . . ونحن لسنا أكثر من بشر . . بل يقول عمر لأبى مريم « والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المراق عليها . . » .

فلا ترتعد فرائص قاتل شقيق أمير المؤمنين بل يسأله « وهل يمنعنى ذلك حقا من حقوقى » . . فيستعيذ أمير المؤمنين . . « لا والله . . » ويرد الرجل « لا أبالى . . إنما يبكى على الحب النساء » .

اللهم لا عنصرية ولا شوفينية . ولكن يصعب على الباحث أن يجد مثلا أعظم من ذلك لخضوع العلاقة بين الحاكم والمحكوم لإرادة القانون لا لعواطف الحاكم . .

أبو مريم وهو يناقش عمر فى حقوقه ، والمرأة تخطىء عمر على المنبر فيبادر بنقد نفسه علنا « اخطأ عمر واصابت امرأة » . . والمرأة البدوية الأخرى على مشارف المدينة تدعو على عمر أمام رجل غريب لا تعرفه من هو . . فيعتذر الرجل عن عمر قائلا « ومن أدرى عمر بكم؟ » فتجيبه المرأة باعظم تعريف لمسئولية الحاكم « ويله .. يلى أمورنا ثم يغفل عنا ؟! » فترتعد فرائص عمر من المسئولية ويذهب يعدو ليحمل الدقيق والسمن على ظهره . .

هؤلاء جميعا مواطنون أحرار يمارسون الحرية كما يمارس المرؤ الوظائف الطبيعية . . ليس بحاجة إلى مرسوم يؤكد حقه فى التنفس . .

ولقد أكبر الكثيرون الحرية الأمريكية التى مكنت معترضا على سياسة كنيدى من أن ينشر فى الصحف إعلانا يطلب القبض على كنيدى . !

ولكن منذ أربعة عشر قرناً جاء عبد فارسى يشكو لعمر ابن الخطاب ، ولما لم يعجبه قضاء عمر هدد أمير المؤمنين بالقتل . . وفهم عمر التهديد وقال « توعدنى العبد . . » ولم يقبض عليه ولا قلعت أظافره بل ترك حراً حتى نفذ تهديده . . وكم كانت خسارة الإنسانية فادحة بمصرع عمر . . ولكن خسارتها كانت ستكون أفدح لو أن الإسلام اقر مبدأ اعتقال الناس بالشبهات .. بالعكس هو يدرأ الحدود بالشبهات..

الأصل فى المجتمع العربى أن الناس أحرار بينما بدأت أوروبا القرون الوسطى بأن الناس غير أحرار . . فلم تقم عندنا ارستوقراطية موروثة ولا اتباع متوارثين . . ربما لأنه لم يعرف الاقطاع الزراعى فى بلاد العرب ، ولعل ذلك ما أشار إليه الرسول الكريم فى قوله : « ما دخلت السكة (الزراعة) أرض قوم إلا ذلوا » .

ثورتنا كانت دفاعا عن الحرية الموجودة أصلا ورد ظلم الحكام ولو باصرار الفقيه على بيع السلطان . . أما فى أوروبا فكانت للتسليم أولا بان الناس احرار .

ويقول الدكتور « ومن أهم المبادىء التى أخذها رفاعة رافع عن فلاسفة التنوير فى أوروبا وعن فلاسفة الثورة الفرنسية فكرة التسامح بوجه عام والتسامح الدينى بوجه خاص » .

ما رأيك يا دكتور فى شهادة غوستاف لوبون : « إن العرب هم أول من آمن بما نطلق عليه حرية الفكر والتسامح الدينى » .

بل إن البعض يأخذ على حضارتنا تسامحها المطلق . .

إن حضارتنا هى أول حضارة تقوم على التسامح بين مختلف الأديان والأجناس فى داخلها ، والتعايش السلمى بين مختلف الدول والنظم . .

أول حضارة يحرم دينها قتل الآخرين لمجرد إختلافهم معنا فى العقيدة أو الرأى ، وأول حضارة يقوم تشريعها على افتراض الوجود الأبدى للمخالفين فى الرأى والدين ، والقرآن يعلن أن هذا التعدد من مشيئة الله الذى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة . . ولكن خلقهم شعوبا وقبائل

لا لكى تسود قبيلة الله المختارة بل ليتعارفوا . .

نحن لم نتعلم التسامح من أوروبا .. بل علمناه للدنيا كلها .. وما زالت بحاجة إلى أن تتعلم منا المزيد .

أما مالا يعقل ولا يتصور فهو قول الدكتور أن الشيخ حسن العطار تعلم من الفرنسيين أن الدنيا لا تتعارض مع الدين ! وأن الطهطاوى وصل إلى رفض « نظرية الزهد والنسك وكافة وجوه الرهبانية وما يسمى فى اللغات الأوروبية **Monasticism** من كتاب ارزاموس الشهير « دليل الجندى المسيحى » .

« فهذه الحجج التى يسوقها الطهطاوى دفاعا عن المال وعن الدنيا تذكرنا بكل ما قاله ارزاموس فى « دليل الجندى المسيحى » . فارزاموس قبل الطهطاوى استخدم الحجج الدينية ليثبت للعالم المسيحى أن الدنيا لاتتعارض مع الدين . . وان المال لادنس فيه » .

لا . . لا يادكتور . . ليس هكذا يتكلم العلماء . .

الاهتمام بالدنيا جزء لايتجزأ من تعاليم ديننا . . وعندنا نص صريح « لارهبانية فى الاسلام » .. « اليد العليا خير من اليد السفلى » .. وعندما اشاد وفد الاعراب بصاحبهم الذى يقوم الليل ويصوم النهار وسألهم النبي فمن يهتم بحاجاته . . قالوا فى فخر . كلنا . . قال رسول الله « كلكم خير منه » . .

وعمر ضرب الرجل المتماوت من شدة الزهد قائلا « لا تمت علينا ديننا أماتك الله » .. وفى ديننا أن « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » بل ذهب بعض المفسرين إلى أن القرآن لم يتحدث عن المال إلا باعتباره (الخير)

أو لم يذكر الخير إلا وهو يعنى المال . .

لا يا دكتور . . الثورة على الرهبانية تعلمتها أوروبا من المسلمين خلال الحروب الصليبية فلما انهارت حضارتنا لجأنا إلى فلسفة التخلف والانهيار واقتبسنا من أوروبا العصور الوسطى المظلمة ، نظام التكايا والتسول والدروشة . .

لا يادكتور . . فى هذه خانتك البراعة . . .

* * *

أما أنت أيها العربى المسلم . .فلا يروعك تخلفنا . . هذا قضاء التاريخ وعقابنا على البعد عن روح حضارتنا وديننا . .

وقد جاء دورنا . . ولا بد أن نتعلم علم أوروبا كله ، وأن نصل إلى ماوصلت إليه من صناعات وفنون . . فبهذه الآلات قهرتنا واذلتنا وأشمتت فينا كل حقود لئيم . .

ولكن . . ليس بنقل المصانع والآلات تبنى الأمم . . ولاتشاد الحضارات بالاقتباس والتبعية الفكرية بل بتحرير الروح القومية . . يبعث حضارتنا الزاهرة . .

لنكن عربا مسلمين يعيشون فى القرن العشرين . .

نحن الذين أصدرنا لائحة الحقوق المدنية قبل الكونجرس الأمريكى بأربعة عشر قرنا .

نحن الذين أعطينا البشرية الكثير .. ومازالت عطشى تنادينا أن نعطيها

ومازال لك أيها العربى المسلم دور رائع لتلعبه . . لا بالآلات وحدها ولا باستيراد المبادىء من الشرق والغرب . . بل برساله السماء . . بدين محمد بن عبد الله . . ابن امرأة كانت تأكل القديد . .

يوليو ١٩٦٤

للمؤلف

مصريون لا طوائف

صدر فى ١٩٥٠

❧❧❧❧

الجبهة الشعبية

صدر فى ١٩٥١

❧❧❧❧

قانون الأحزاب

صدر فى ١٩٥٢

❧❧❧❧

روسى وأمريكى فى اليمن

صدر فى ١٩٥٧

❧❧❧❧

شرف المهنة

صدر فى ١٩٦٢

هذا الكتاب

* يناقش علاقة الإسلام بالثورة العربية

* يفند المفاهيم المعادية للاسلام التى ابتدعتها « ثورة » لورنس وورثتها الحركات "قومية فى الشرق العربى

* يرى ان اسلامية الثورة الجزائرية ليست ظاهرة جزائرية بل الوضع الطبيعى للثورة العربية الشاملة

* يناقش بعض النماذج المتأثرة بالغزو الفكرى الاستعمارى

* يرى أن الغرب يشن الآن حملة جديدة فى الحرب الصليبية الأبدية والشرق

الغلاف تصميم الفنان عزت

